رواية

استدعاء شيطاني

أسماء أبوالعطا

مراجعة الدكتور / أحمد المهدي

إهداء خاص

• • •

إلى الغائب الحاضر، إلى روحه التي ترافقني أينما ذهبت،
تدعمني بقوة أكبر من قوة الأحياء، إلى
" أبي عليه رحمات الله
تترا "
إلى مهجة قلبي، ورفيق دربي (أخي) الذي تحمل عني ما لم
أستطع أن أحمله بنفسي....
إلى كل من صدق قلمي وآمن بموهبتي، وعمل جاهداً لتصل
روايتي إلى أيديكم.

شكراً لكم من الأعماق

إلى أولئك الذين تلقوا صفعات الحياة

نيابة عن غيرهم.....

إلى ذلك الخير الساكن في أعماق

قلوبهم......

إلى كل ظالم لنفسه....

- 1 -

جلس على الكرسي إلى جوارها، ينظر إليها وقد استلقت على سريرها الأبيض بوجه شاحب، وجفون غطاها السواد لتبدو كامرأة في العقد الثامن من عمرها.

من يصدق أنها المرأة ذات الثلاثين عاماً، تبدو الآن وكأنها لا تنتمي إلى هذا العالم.

مر عامان ونصف على تلك الحادثة المشؤومة، ومنذ ذلك اليوم قررت أن تنأى عن هذا العالم منتظرة أن تتوقف دقات قلبها لتنعم بالراحة الأبدية!

نظر إلى عينيها المغلقتين متفحصاً على أمل أن تفتحهما فيشع نورهما من جديد، راح عقله يرسم صورة لها، بابتسامتها البريئة وهي تداعب صغيرها الذي بلغ من العمر ثلاث سنوات، وهو بعيد عن حضنها وقد حرم من حنانها، تخيلها وهي تحمله وتداعبه معلنة انتهاء هذا الكابوس المؤلم.لكنها الآن ترقد في صمت يبعث أشباح الماضي، وينثر الأشواك في طريق الصباح.

يا الله كم كان الماضي قاسياً!!بل حينما توارد . مُلِحّاً . على عقل زوجته؛أفقدها صفاء حياتها وروحها، ووقف كالحصن المنيع أمام محاولات الأطباء التي دائماً ما كانت تبوء بالفشل!

متى تستطيع أن تنتصر علي شبح الماضي؟؟

وهل ستستطيع؟

فهو يعلمها جيداً إنها ضعيفة إلى أبعد الحدود، ولكنه كثيراً ما كان يعشق ضعفها هذا الذي يجسد البراءة والأنوثة في أبهى صورها، ومع ذلك فقد حاول كثيراً أن يقوي من عزيمتها ويشد أزرها لكي تقوى على مواجهة الحياة، ولكن كل محاولاته كانت تذهب هباءً!! وها هي النتيجة: صمت دائم، عينان لا تفتحهما قط، جسد ساكن يُخيل للناظر إليه أنه مومياء، لا يفرقها عن الموتى سوى أنفاسها المتصاعدة ودقات قلبها التي ترصدها الأجهزة الطبية...

اغرورقت عيناه بالدموع بعدما نجحت في اجتياز حاجز التجليد المصطنع فسالت على وجنتيه، وكأن دموعه ترجوها أن تفيق وتنهض؛ لينتهي عذابه وتعيد النشاط إلى حياته البائسة التي صارت مملة ورتيبة إلى حد لم يستطع تحمله، فلم يعد يقدر أن يمثل دور الإنسان الحي أكثر من ذلك.

أطلق لدموعه العنان دون أن يشعر واهماً بأن دموعه ستريحه وتثلج صدره، ولكن هيهات، هو يحتاج إلى مكان ناءٍ خالٍ من البشر ليصرخ ويصرخ حتى يستريح قلبه الحائر، يحتاج إلى صفعة على وجهه لتوقظه وتعيده إلى الحياة من جديد، بل إنه يصبر نفسه قائلاً: "هذا كابوس وحتماً سينتهي، وستأتي زوجتي حسناء لتوقظني بكل الحب، لأتناول الإفطار معها بين أولادي، كل شيء بخير فقط هو كابوس صنعته مخيلتي الحمقاء "

ولكنه لا يعلم أن ما يفكر به هو الحلم بذاته، فكيف له أن يهرب من واقعه؟!!!

لندع الحلم يثرثر وإن لم يكن من حديثه طائل...

كثيراً ما يكتب عليك القدر ما يرفضه عقلك، ولكن إذا ما تكلم القدر فليس عليك سوى التسليم، ولا سلاح لك غير الدعاء، وستمضي في نهاية الأمر إلى ما كتب عليك، فمن رضي فله عظيم الجزاء والرضا من الله، ومن سخط فكأنما ذبح بسكين القدر ثم سقط في بئر السخط.

*　　*　　*

هنا في الأقصر مدينة الألف باب وعلى بعد حوالي 670كم من القاهرة، جلست متعبة بعدما قضت يومها في ترتيب الشقة بعد زيارة أقارب زوجها لهم أمس.لاحت على شفتيها ابتسامة وهي تنظر إلى الشقة الآن، وإلى ما كانت عليه من الفوضى التي أحدثها الأطفال، نظرت لمن يجذبها من يدها وكأنها انتبهت توًا لوجوده، ابتسمت بفرح وهي تحمله وبلهجة حانية قالت .وهي تجلسه على رجلها وتداعب شعره الأسود الكثيف :هل أنت جائع؟

أومأ برأسه أن نعم...

فابتسمت وقالت حسناً ستأكل حالا يا صغيري...

همت بالقيام فاستوقفتها ابنتها هالة، وهي تقول بلهجة طفولية مصطنعة:أمي أريد أنا أن أطعم عمراً...

فصاحت مباغتة في رد صارم:لا لن يطعمه أحد غيري!

عبست ومدت شفتيها وانطلقت تضرب الأرض بقدميها، وهي تردد كلاماً لم تفهم منه سوى عبارة واحدة: (لماذا أنتِ فقط من يصنع كل شيء لعَمرو؟!!!!)

على الرغم من اللامبالاة التي تحدثت بها، إلا أن العبارة وقعت كصفعة على وجه أمها فاطمة، دائما ما تصارح نفسها باهتمامها الزائد به، ولكن هل تستطيع أن تكون بالصراحة نفسها مع ابنتها؟

أخرجتها يد عمرو الصغيرة من شرودها وهي تجذبها وتحثها على السير فابتسمت له في خفوت.

أجلسته على الكرسي بجانب الطاولة الصغيرة التي بالكاد وُضعت في المطبخ، ثم جلست بجسدها الممتلئ بجواره على الكرسي الآخر تطعمه وهي تبتسم له ابتسامة أودعتها كثيراً من الحنان.

لقد قسى الزمان على هذا الطفل البريء، وخَفِيَتْ حكمته عن العقول القاصرة!

ما ذنب طفل قد ذاق توجع الأيتام، وأبواه على قيد الحياة؟

تمنت لو كان الزمان إنساناً يتكلم ويجيبها ليطفئ نار حيرتها ويشفي غليلها....

فرت من عينيها أدمعٌ بدون قصد منها لم تنتبه لها إلا عندما شعرت بأنامله الصغيرة تتسلل مرتعشة إلى وجنتيها لتطفئ حر أدمعها، ولكنها كانت كالشوك يمزق جلدها.....فهل تستحق أن

يضمد جرحها ويمسح دموعها؟ أم أنه بذلك يضيف إلى قائمة ذنوبها ذنباً جديداً؟

شعرت بنار تشتعل داخلها وهي تتذكر يوم أن رفعت سماعة الهاتف .وليتها ما فعلت: ألو...... هل ما زالت تذكر أن لك أختاً؟ أهذا هو حقي عليك؟........... حسناً سأقبل عذرك هذه المرة ولكن لن يستهويني كلامك مرة أخرى.......كيف حال حسناء والأولاد؟..........ستزورونا قريباً أليس كذلك؟........... لا، فأنا غاضبة منك كثيراً، وإن لم تأت أنت والأولاد فلن أكلمك أبداً بعد اليوم....... حسناً سأنتظرك.

أغلقت عينيها وقلبها يعتصر من الألم.

* * *

أشاح بوجهه عن الأجهزة الطبية التي انغمست في جسدها، وحدث نفسه في صمت لابد وأنها مستاءة منها ومن رائحة الغرفة، فدائماً ما كانت تكره المستشفيات.

ابتسم رغماً عنه وهو يتذكرها وهي تمسك بيده عندما ذهبا لزيارة عمتها في المستشفى، وهي تقول باشمئزاز:" هذه المستشفيات لم تنشأ لعلاج الناس، بل لجلب الأمراض إليهم! لا أعتقد أن عمتي سترتاح هنا وسط هذا الجو المملوء بالكآبة ".

فُتح باب الغرفة ببطء لتظهر من خلفه الممرضة بتلك المشية الرتيبة والثياب البيضاء والحجاب الذي زادها جمالاً، هادئة هي بطبعها ولم يصدر منها ما يشينها، ولكنه لم يعد يألف كل من في المستشفى، لذلك فهو يتجاهل تماماً تلك الرقة والابتسامة العذبة، بل ويقابلهم بجفائه الذي أصبح شيئاً معتاداً، كما إنها هي أيضاً لم تكن تنتظر شيئاً منه، فقط هي تقوم بواجبها.

اقتربت من حسناء وغرست الحقنة في المحلول المتصل بوريد يدها، حتى أفرغت محتواه فيه، ثم قالت بصوت خافت وهي تضع الحقنة في صندوق الأمان المخصص للنفايات الحادة: " الدكتور يود رؤيتك، وهو ينتظرك في مكتبه الآن ".

أومأ برأسه موافقاً، فانصرفت بهدوء.

نظر إلى فراغ الغرفة حوله وهو يتأفف، يعلم ما سيقوله الدكتور: إن الحالة ليست سهله على الإطلاق وتحتاج إلى صبر وجهد كبيرين.

ويبدو أن هذا الدكتور لم يتعظ من الدرس القاسي الذي لقنه إياه من عدة شهور! مازال يتذكر نفسه وهو يصرخ بوجهه وقد استشاط غضباً: " ولماذا كل هذه الأموال التي أدفعها لكم؟! لم أدفعها لتقل لي أن الأمر صعب للغاية، بل لتقل لي أنها شفيت وعادت للحياة من جديد ".

ثم إنه لم يكن بحاجة إلى من يخبره بحجم المعاناة، فهو يعلم ذلك جيداً حيث إنه الوحيد الذي يستطيع أن يقدر حجم الصدمة التي أحلت بها.

فالجميع ينظر إليها إما بعين الشفقة، أو بنظرة علمية سطحية ترى أن صدمتها لم تكن

بالهينة..

وحده هو الذي عاش معها الكارثة بكل تفاصيلها، فلا تحدثوه عن الفاجعة فقد حرق بنارها كما حرقت هي.

قام من الكرسي بثقل وسار بخطوات بطيئة نحو باب الغرفة، والتفت إليها وهو يقول بصوت يشبه الهمس: " سأعود إليك يا حبيبتي ".

جلس أمام الطبيب، وقد شحن نفسه بجرعة صبر ولامبالاة عالية، لم يشأ أن يدخل معه في شجار مجدداً، تظاهر بالاهتمام وهو يستمع إلى تلك الأسطوانة التي حفظها عن ظهر قلب حتى مل من سماعها، نظر إلى شعره الأبيض وهو يحدث نفسه: " ألم تمل؟!!!

أخبرني أرجوك من أين جئت بكل هذه الغلظة؟!!!

كيف تحتمل نفسك هكذا؟! "

تمنى لو كان يستطيع التخلص من هذا الرجل الذي دائماً ما يثير مخاوفه، ويطفئ شعلة الأمل التي توشك أن تخبو بداخله، ولكنه مضطر، فقد جرب قبله الكثير ويبقى هو واحد من أشهر الأطباء في مصر.

دخل إلى المنزل محاولاً تجاهل الفراغ والسكون الذي عشش في أركانه، ومحا معالم الفرحة والحياة بداخله، ورسم البؤس على جدرانه.. دخل بذلك القلب الذي فقد حياته وبهجته ليسطر قصه تنهمر من أجلها الدموع أبحراً.

دخل إلى غرفته فنزف جرحه أكثر وأكثر، نظر إلى شحوب وجهه في المرآة وهو يتحسس الشعر الأبيض الذي لاح في رأسه ولحيته التي نمت في غفلة منه.

أراكِ أيتها المصائب تأخذين نصيبك من كل شيء، فهل أشفقت عليّ وتنازلت عن شيء واحد؟! أم أن التفاهم معك ضرب من المحال؟!! ولكن لا تزاحم الدنيا على ما أخذته عنوة منك.

جلس على سريره، والتقط علبة السجائر من تحت وسادته، ولكن منذ متى وهو يدخن؟ولماذا؟!

هل ابتعد عن الله جل وعلا بعد محنته، فسقط في بعض الذنوب وهو لا يشعر؟ وهل كانت الذنوب سبباً آخر في ضيق صدره؟

ألقى بعلبة السجائر على الأرض وداسها بقدمه، ثم عاد واستلقى على سريره محتضناً وسادته متظاهراً بالنوم، ولكن هيهات أن تنام عيون القلب الحائر، أو أن تسكن الجراح النازفة.....

لو كان الزمان قادراً على أن ينسي الإنسان همومه وأوجاعه .كما يُقال .فلماذا لم يذهب هم قلبه إلى الآن؟! بل لماذا يتوجع اليوم كتوجع أمس؟!!!

*   *   *

انطلقت صافرة القطار المتوجه من القاهرة إلى الأقصر في تمام الخامسة صباحاً، ليصدر بعدها ضجيجاً فوق القضبان المتهالكة التي مدها الإنجليز أثناء احتلالهم لمصر، وكالعادة لا مكان في الدرجة الأولى المكيفة ولا في الدرجة الثانية، طالما أنك لم تبادر إلى حجز مقعد قبل الرحلة بأسبوع، كانت مقطورات الدرجة الثالثة ممتلئة بالركاب، وبالكاد وجد أحمد مكاناً خالياً بجوار النافذة.. جلست بجواره امرأة عجوز منهمكة في عد قطع النقود القليلة التي تستقر في راحة يدها منكمشةِ الجلد، وكأنها تحسب أجرة المواصلات إلى قريتها وما سيتبقى معها، وما تصنع هذه النقود القليلة في هذا الغلاء الفاحش؟!

"جرائد..جرائد" انتزعه صوت البائع من تفكيره، فاشترى الجريدة الرسمية والتي لا تنشر إلا ما وافق أهواء السلطات، إما لإلهاء الناس عن أحداث هامة، أو تسليط الضوء على إنجازات وهمية، أو لتبرير التقصير الذي تغرق فيه البلاد...أخذ يطالع الجريدة بلا جدوى! لا يفقه كثيراً مما يقرأ، تمر عيناه على السطور مرور الكرام.

يعلم أنه لا فائدة مما كُتب، فإما أنه قد صرح رئيس الوزراء، أو سافر الرئيس إلى بلدة كذا، أو إعلان عن أفخم أنواع السيارات، أو أخبار الفنانين الذين لا يعلم حتى أسماءهم، أو حادث قتل، أو القبض على تشكيل عصابي، أو عالم الأبراج الذي لم يصدق به يوماً وكل ذلك لا يهمه على الإطلاق، إنما اتخذ من الجريدة درعاً كي لا يأتي أحد ويقتحم تلك النوافذ التي أغلقها على نفسه، وجسراً يعبر به عامل الوقت الممل إلى درجة كبيرة.

لا يدري ما الذي جعل بروحه هذه الفجوة بينه وبين المجتمع؟!

لا شك أن الروح من أمر ربه ولكن ذاته البسيطة المعرفة، وكلماته شديدة الفقر، وعبارته ضعيفة الأثر، وسنواته قليلة الحضر، جعلته في ريب مما يمر به فما الذي جاء به إلى عالم ليس له منه مفر؟!!!

ما أطولها من رحلة! أكثر من 10 ساعات في هذا الصداع والجو الممل والأصوات العالية، ما بين صرخات الأطفال وضحكات الشباب وثرثرة النساء غير المنتهية.....

أغلق الجريدة بعدما فشلت في إلهائه وأخذ يتطلع إلى وجوه الناس متفرساً فيهم.. كعادته يحاول أن يستشف ما يدور في عقولهم.. يراهم جميعاً مجتمعين على أنهم قد اتخذوا من الشجن أخاً لهم.

ابتسم بمرارة وتشفٍ! وكأنه كان ينتظر أن يرى الحزن يطفو على الوجوه ويثقل المقل؛ ليجد في الناس أنيساً له.

وصل القطار إلى الأقصر في تمام الخامسة قبيل أذان المغرب، استقل إحدى سيارات الأجرة بلونيها الأبيض والأزرق، كم يرتاح لهذين اللونين، جلس بجوار السائق وهو يعلم أنه خطأ كبير،

فلم يكف عن الثرثرة طوال الطريق وهو مابين مدح في عظمة الأقصر ومكانتها منذ القدم وآثارها الخالدة، وما بين سخط من ارتفاع الأسعار وانخفاض السياحة، وبالطبع لم ينسَ أن يترحم على أيام ازدهار السياحة في المحافظة.

* * *

كان الاستقبال حاراً، لشدة نار الأشواق فقد مضى أكثر من شهرين على زيارته الأخيرة، حمل عَمْراً بين يديه، وأخذ يداعبه بشغف لم يستطع إخفاءه.. لمعت عين الصغير وهو يأخذ اللعبة التي اشتراها له بعناية وبحث طويل.. دقت طبول السعادة بداخله وهو ينظر إلى الفرحة التي ملأت عينيه، والابتسامة البريئة التي تزين شفتيه، كم كان يحتاج لرؤية تلك الفرحة.

ما كل هذا الدفء الذي يشعر به كلما رآه؟!

أخذ يراقبه في سعادة أطفأ رونقها ذلك الحزنُ والألم الذي نما كالشوك في صدره فما الذي حمله على البعد عنه؟ على حرمانه من رؤية تلك الفرحة التي تشع من عينيه؟

كم كان يشتاق إلى أن يراه يترعرع على مرأى ومسمع منه، يوبخه، ويمسح دمعته، يضربه، ويربت على يده، يصرخ بوجهه، ويتقاسم معه الضحكات، يمنعه من هذا ويرغبه في ذاك... فرت من عينه دمعة رغماً عنه فسارع في إخفائها.

جاءت فاطمة من المطبخ مهللة ومرحبة به بين الحين والآخر.. ظهر بعض التردد الواضح وهي تسأل على استحياء عن حالة حسناء.

أراد أن يأخذ الحديث لجهة أخرى فقال بغضب مصطنع:لِمَ لَمْ تقولوا لي أن أجلب طعامي معي؟ فيبدو أن البخل قد حل ضيفاً ثقيلاً بداركم!

ابتسمت رغماً عنها، فتورد خداها، وحل الصمت ضيفاً بينهما، حتى قطعه إبراهيم زوج فاطمة وكان قد عاد للتو من صلاة المغرب، وبعد تبادل السلام والترحيب جلس الجميع على مائدة الطعام التي امتلأت بأصناف شتى، لم يستطع أن يميز بين مذاقها، فقد فقدَ شهيته وصارت كل الأشياء عنده كجرعة ماء بلا طعم أو لون أو رائحة.

أخذت فاطمة تطعم عَمْراً والذي كان يحاول التملص منها في مشهد طفولي يأخذ القلب من سكراته، وأحمد يختلس النظرات إليه بين الحين والآخر.

بعد انتهاء العشاء استأذن وقام ليستريح في غرفة عماد ابن أخته، والذي يقضي الخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش، كغيره من آلاف الشباب على الحدود بلا تدريب كاف، فمنهم من يعود إلى حضن بيته سالماً، ومنهم من يعود في تابوت بعد أن مزقته رصاصات الجماعات المتطرفة التي تبرأ الدين منها، أو أخرى تتاجر بعقول الشباب وتبيع لهم الوهم في تلك الأقراص المخدرة.

ألقى بجسده المنهك على السرير، وما لبث أن دخل عمرو وراءه، تعلو وجهه ابتسامة مشرقة، تعالت الضحكات والحنين يدغدغ قلبه، حتى ناموا يحتضن كل منهما الآخر.

*   *   *

أشرقت شمس اليوم التالي معلنة عن بدء يوم جديد.. ترى ما الذي تحمله معها؟

هل تبدو غريبة كما يرى؟ أم أنها فقط شمس الأقصر الحارقة التي تلهبه في كل زيارة؟! لا يعرف كيف استطاعت أخته التأقلم مع جو الأقصر الحار!

ربما كان حبها لزوجها وأولادها يدفعها لتحمل الكثير من الصعاب دون شكوى...

تململ في فراشه وهو يفتح عينيه ببطء.....لا ينام بهذه الطريقة إلا عندما يكون عمرو بجواره لئلا يؤذيه.

قام ببطء خشية أن يوقظه، التقط هاتفه وأخذ يعبث به قليلاً، ثم زفر بضيق فقد فاته موعد القطار وسيكون مضطراً لانتظار موعد القطار التالي في الثانية ظهراً، خرج إلي الردهة فلم يجد أحداً.. توقف قليلاً يسترق السمع وسار خلف الصوت المنبعث من المطبخ.. وقف مستنداً إلى الباب ينظر إلى ذلك الهدوء العجيب الذي يكسو أخته ويزينها بالوقار.

تمنى لو أنه يتمتع بشيء من ذلك الهدوء، ولكن طبعه سريع الاشتعال يأبى أن يفارقه أبداً.

بابتسامة هادئة قال:صباح الخير يا فاطمة.....

نظرت إليه بابتسامة حزينة مصطنعةً، واكتفت بها رداً عليه!

قال وهو يجلس على الكرسي إلى جوار الطاولة، محاولاً تجاهل أمر ما . يعلمه جيداً. وراء ابتسامتها الحزينة: لماذا لم توقظيني كما طلبت منك أمس؟ لقد فاتني موعد القطار.

نظرت إليه بعتاب، وهي تقول:وهل يصلح أن تسافر اليوم وقد وصلت أمس؟

.بالطبع يجب أن أعود للعمل غدًا، لا يجدر بي أن أترك حسناء وحدها طويلا.

نظرت إلى بشرته التي أحرقتها الشمس، و جسده الذي أكلته الهموم فازداد نحافة، حتى بدت قامته الطويلة كعود زرع يوشك أن يسقط على الأرض! ففرت الدموع من عينيها، لتعرب عن شدة ألمها لحالة أخيها التي يُرثى لها.

ألم يجدر بها أن ترحم أخاها قليلاً؟ نعم هي تكبره بخمس سنوات كاملة، ولكنه يفوقها حكمة وحسنَ زنةٍ للأمور.. اقترب منها ومسح دموعها، ودعاها إلى الجلوس ففعلت على مضض.. ربت على يدها بحنان يتنافى تماماً مع عصبيته المفرطة.. جلس علي ركبتيه وهو يحتضن كفها بين يديه، وقال بغضب مصطنع:كم مرة سأقول لك أنه لا ذنب لكِ فيما حدث؟

أكمل وقد ازدادت نبرته حدة: وإن لم تكفي عن ذلك الهراء سوف آخذ عمراً معي، ولن آتي إلى هنا مرة أخرى.

نظرت إليه بدهشة فقال .وقد حنت نبرته وامتلأت بالترجي ودب الضعف في حروفه :

أختاه إن قلبي قد تمزق، وما عدت أقدر على احتمال المزيد من الآلام، فلا تضيفي هماً إلي همومي.

صمت لبرهة، ثم استطرد قائلاً:

كثيراً ما كنت أشتاق لأحد ألقي عليه همومي، ولم أعد أملك أحداً غيرك في هذه الحياة، فكيف لي أن ألجأ إليك وأنت تفكرين هكذا؟! قالها ثم أجهش بالبكاء، فترى الدموع تفر من عينيه وكأنها أسير في سجون احتلال وقد لاحت له فرصة الهرب! سالت دموع فاطمة، فغرقا في بحر دموعهما، فما أنقذهم إلا مجيء عمرو الذي استيقظ وراح يبحث عنهما.

مسح أحمد دموعه، وفتح ذراعيه لعمرو، فانطفأت بعض آلامه وهو يضمه إلى صدره، ثم قام وهو يحمله، وعاد إلى غرفته ليجهز حقيبته، فما عاد سوى القليل على موعد القطار.

فانصرف بصحبة دعوات فاطمة وابتسامات عمرو وهالة....

* * *

وصل المحطة وقد سنحت له الفرصة أن يلحق بمقطورة الدرجة الأولى، ابتسم عندما تذكر أنه ليس بحاجة إلى أن يسمع قصص الركاب وصرخات الأطفال.

استرخى على أحد المقاعد وهو يشعر ببعض الراحة الآن، تمنى لو لم يأت أحد للجلوس بجواره ولكن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن..

دخل رجل في نهاية العقد الرابع من عمره، طويل القامة لكنه ليس أطول من أحمد، عريض المنكبين يرتدي حلة سوداء أنيقة، ذو شعر أسود خفيف وأنف حادة وعينين بنيتين ضيقتين تشعان حدة وذكاء مع أنهما مختفيتان خلف نظارته الطبية.......

استأذن بأسلوب مهذب كي يجلس على المقعد المقابل له فاعتدل في جلسته وأومأ برأسه موافقاً فابتسم الرجل بدوره وأخذ يعبث قليلاً بهاتفه.

كان أحمد يتأفف بداخله والغيظ يملؤه، فتح الرجل الكتاب الذي كان بيده والذي يحمل عنوان يبدو مثيراً للغاية

(months fifty sheep in folk psychology……the demolition of the common misconception about human behavior)

(أشهر 50 خرافة في علم النفس.....هدم الأفكار الخاطئة الشائعة حول سلوك الإنسان)

بدأ الرجل يلتهم صفحات الكتاب باهتمام كبير، بينما أحمد يرمقه بنظرات بين الحين والآخر، وأخذ يحدث نفسه ما شأن هذا الرجل؟! شمس الأقصر تكاد تدنو من الرؤس والحرارة على وشك أن تحرقنا وهو لا يزال يحتفظ بمظهره الرسمي ويبدو أنه غير منزعج على الإطلاق!!! وما هذا الذي يقرؤه؟!!!

فما بال هؤلاء المغترين أمثال هذا الرجل يشغلون أنفسهم بأمور تافهة، فما هذا ال "علم النفس" الذي يضيعون أعمارهم في فهمه، ويصدعوننا به إلا شيء نظري عقيم لا يسمن ولا يغني

من جوع......

ابتسم داخله بسخرية وهو يقول "أشهر 50 خرافة في علم النفس "بل من الإنصاف حقاً أن تقولوا إنه كله خرافات!...

تابع حديث نفسه بمرارة قائلاً:لو كان هذا الذي أسميتموه بعلم النفس وزعمتم أنه يبحث في خبايا النفس البشرية وحالة الإنسان وأفكاره لفطنتم ما مرت به حسناء ولكان بوسعكم مساعدتها، فلقد تركت أبواب السحر والكهانة التي نصحني بها الكثيرون، وطرقت أبوابكم ولم أجد عندكم ما يروي ظمئي......

هل كان هذا العلم إلا خدعة كبيرة أو أنكم لا تحسنون فهمه واستخدامه!!

أفاق من شروده على صوت رنين هاتفه، ظهر على الشاشة اسم صديقه المهندس حسام، فأجاب أحمد:ألو........نعم أنا في القطار، في طريق عودتي إلى القاهرة......لا يا حسام أرجو أن تعذرني، سأعود مرهقاً ووقتي لن يسمح......إذن سأراك غداً في موقع الحفر.........مع السلامة.

أنهى مكالمته وهو يعلم جيداً أن وقته فارغ تماماً إلا من المكوث بجوارحسناء وبعض الوقت الذي يقضيه في العمل، ولكنه لا يستطيع أن يقبل دعوة حسام علي العشاء، يعلم أنه يحبه كثيراً وهو كذلك يرتاح للجلوس معه، ولكن زوجته لا تحسن معاملته وهو يريد أن يتجنب حدوث شجار بين صديقه وزوجته بسببه.

عاد بنظره إلى الرجل الجالس أمامه يلتهم صفحات الكتاب بعينيه وكأنه يقرأ إحصاء لتركة عمه وينتظر نصيبه منها.

حاول تحديد طبيعة الرجل ترى ماذا يعمل؟

ولكن لماذا يهتم به هكذا؟!

لقد تعجب هو من نفسه ولكنه غير قادر على الامتناع عن التفكير في شأن هذا الرجل.

مسح الرجل نظارته بمحرمة ورقية ثم عاد فارتداها من جديد، نظرا لبعضهما قليلاً، ثم قال الرجل وهو يضع الكتاب بجواره والابتسامة تزين شفتيه:عفواً لم أعرفك بنفسي الدكتور جمال الديب استشاري الأمراض النفسية والعصبية.

ابتسم أحمد ببلاهة وهو يصافحه، حل الصمت بينهما ضيفاً ثقيلاً إلى أن قطعه الدكتور جمال قائلاً:لم تعرفني بنفسك بعد! ألن تفعل؟

رد أحمد بتلعثم وقد بدا عليه الحرج:أحمد عزمي.. مهندس بترول.

كانت الابتسامة العذبة لا تزال تزين شفتيه، وهو يحاول بدء الحوار معه:يبدو أنك متعب من السفر ولا يعقل أنك أتيت إلى الأقصر في اليوم نفسه كما أنك لست من أبنائها.

رد أحمد باقتضاب غاضباً من تدخله، فكم يكره أن يتدخل أحد في حياته:لا، لقد أتيت أمس ولكني مرهق قليلاً.......

.إن كنت قد مللت من طول الرحلة فيمكنني أن أعيرك كتابي.......

لاحت على شفتيه ابتسامة مصطنعة، وقد أدرك أنه لاحظ تطلعه إلى الكتاب، قرر عدم مناقشته، ولكنه سرعان ما تراجع، فلم لا يخرج كل ما في جعبته ويصب عليه نيران غضبه منه ومن أمثاله، إنها فرصة ربما لا تعوض، وقد عزم أمره على ذلك فكثيراً ما كان يود لو أنه كالبركان الثائر، كي يحرق بلهيبه هذا العالم، فقال في تحدٍ واضح:أنا لا أؤمن بمثل هذه التفاهات، خرافات ونظريات لا تكاد تخرج من بين دفتي كتبكم الصماء، استكمل بغضب وهو يشاهد ابتسامة الرجل تتسع فأثارت استفزازه وهو يشير إلى الكتاب:هذا الذي أسميتموه علماً لا جدوى منه على الإطلاق، إنه دائماً ما يأتي كقبلة اعتذار على جبين الميت، لا تدخل جنة، ولا تطفئ ناراً.

صمت للحظات ثم استطرد في ضيق قد فشل في إخفائه: أراك تنظر إلي على أنني رجل جاهل، وربما تحدث نفسك أنني من أولئك المحاربين السذج الذين ليس لهم غرض سوى التجريح والمخالفة وال...........كاد أن يكمل فاستوقفه قائلاً بلطف:الأمر ليس كذلك على الإطلاق، فأنا أشعر بك تماماً، وأود أن أعرف وجهة نظرك كاملة و........كان التردد قد تجسد في نبرته وهو يقول بحذر:ولكن ربما مررت بموقف ما فجعلك مستاءً إلى هذه الدرجة أم أنها نظرية فقط؟ ولا تنس أن الإنسان عدو ما لا يعرف...........

صمت لبرهة ثم أردف قائلاً: باختصار شديد أود معرفة الأسس التي بنيت عليها وجهة نظرك وأعتقد أن هذا حقي.........

ازدرد ريقه بصعوبة وساد الصمت بينهما لدقائق قليلة، تردد خلالها صوت الدكتور "نبيل" الذي يعالج حسناء، وكأنه قادم من قاع بئر سحيق، وتلك الأسطوانة المتكررة التي حفظها عن ظهر قلب......افتتح عينيه البنيتين وهو يحاول أن يستجمع شتات نفسه، وتحدث بحنق شديد وهو يشير إلى الكتاب:أتظنون أن مثل هذه الكتب قد تمحو خرافات علم النفس من المجتمع؟وإن كنتم تريدون نهايتها فلماذا صنعتموها إذاً؟

أليست هذه الخرافات هي نِتاج نظرياتكم الفاشلة، وعقولكم الواهية التي حكمت دون إحاطة كاملة؟!

كيف لي أنأصدقكم وأنتم تؤكدون وتبرهنون لتسلط عليكم الأضواء، ثم تأتون بكل بساطة تنفون كل ما قدمتموه من قبل، صمت لبرهة يلتقط أنفاسه ثم استكمل وقد ظهر التهكم بوضوح في نبرته:وبعد كل ذلك تزعمون أنكم تخاطبون العقول الراقية...أي رقي هذا!.........فما هي إلا خرافات ابتدعتموها.

صمت وهو ينتظر منه أن يغضب من كلامه وتثور ثائرته لتسنح له الفرصة فيتشاجر معه، ليس حباً في المشاجرة وإنما تعطشاً لأن يفرغ مرارة السنين ويبتلع غصة في حلقه، فهو متعطشاً لأن يلقي قذائفه على شخص لا يعرفه ثم يبتعد عنه وينساه......ولكن رد فعل ذلك الرجل أتى محطماً له كل آماله.

رد بنبرة هادئة بعد أن ارتشف جرعة ماء من القنينة التي كانت بجواره:من قال أن هذه النظريات ستختفي عندما نطرحها ونكشفها؟!

ولكنها بالطبع ستقل وتصحح لتصحح معها المعتقدات الفاسدة والنظريات الخاطئة، ثم استطرد وهو يعتدل في جلسته وقد بدا مستمتعاً بالحديث:ثم إن الغالب من هذه النظريات الخاطئة تم وضعه في بداية هذا العلم، ويصعب على كثير من العلماء التخلي عنه، لكن هناك من العلماء من يمتلك الشجاعة الكافية ليصحح الخطأ بغير تقديس للنصوص الأولى......... ومن قال إن العلماء لا يخطئون؟ أليسوا بشراً؟!

فقد حاولوا واجتهدوا وإن لم يوفقوا إلى عين الحقيقة فذلك ليس عيباً، بل العيب كل العيب والخطأ كل الخطأ أن نجلس كالحجارة لا نحاول ولا نريد لينتج عن ذلك أننا لن نستطيع........أكمل باستمتاع أكبر حينما رأى الاهتمام في عين محاوره: وأنا في الحقيقة أتفق جداً مع "سير كارل بوبر" عندما قال "لابد أن يبدأ العلم بالخرافات وينتهي بنقد الخرافات" صمت قليلاً ليرى مدى تأثر أحمد بكلامه إلى أن قطع أحمد حاجز الصمت بقوله مستفهماً:ولكن كيف تساعد مثل هذه الكتب في تقليل خرافات هذا العلم من المجتمع؟

أجاب باستقطاب وهو يحل رابطة عنقه:لن أجيب على سؤالك.....ضاقت عينا أحمد باستفهام، فتابع الدكتور جمال مبتسماً:لن أجيبك، سأجعل "توماس جليوفيتش" هو من يجيبك، يقول "جليوفيتش" عن هذا الكتاب تحديداً (إن هذا الكتاب يبين أن دحض الأكاذيب ليس مهمة سهلة ويكشف الكتاب زيف معتقدات العلوم الزائفة شديدة الانتشار ويقيم الأدلة على كذب مجموعة متنوعة من الخرافات التي تبدو وكأنها يجب أن تكون صحيحة ويفسر أسباب سقوط الناس فريسة لمثل هذه الأكاذيب وينتهي ببعض الحقائق المثيرة للعقل والسلوك وتوضح أن الحقيقة يمكن أن تكون عجيبة كالخيال تماماً)

انتبه أحمد بشدة وقد أخذت الجملة الأخيرة جل تركيزه(أن الحقيقة يمكن أن تكون عجيبة كالخيال تماماً) لاحظ الدكتور جمال صمت أحمد الزائف فعلى الرغم من أن شفتيه لم تتحركا إلا أن عينيه تحكيان الكثير وليته يستطيع أن يحكي له......... تمنى لو أنه يستطيع الغوص في أعماق عقله ليرضي فضوله الذي كاد أن يقتله، فحاول أن يلمس وتراً حساساً ليحرك لسانه ويفتح قلبه، فقال بخبث ودهاء:إن علم النفس قد ساعد الكثيرين في الخروج من مآزق شتى كادت أن تحطم حياتهم أو تنهيها في بعض الأحيان........

ابتسم أحمد بمرارة وهو يقول بشرود: ولكنه لم يستطع مساعدتي، بل ظل يفعل بي كالسجين الذي خيم الصمت المميت على زنزانته، وإلى جانبه صنبور الماء، يقطر كل دقيقة قطرة، حتى يكاد السجين أن يفقد عقله وهو ينتظر سقوط القطرة التالية.

*　　*　　*

ابتسم الدكتور جمال وهو يجفف العرق الذي تصبب على جبينه، وقال بهدوء بالغ: وما يدريك لعلك طرقت الباب الخطأ، وسرت في نفق مظلم... ابتسم أحمد ساخراً وهو ينظر من نافذة القطار بجمود، وقال بتهكم: عامان ونصف وأنا أطرق الباب الخطأ!!! ألا ترى هذا عجيباً؟

_ وما العجب في ذلك؟ فربما لم يحالفك الحظ بعد.....

_ قد يكون فأنا أعرف حظي جيداً.

_ ولكن لعله ابتسم الآن........

صوب أحمد نظره إليه وضاقت عيناه بعدم فهم.........

وضع الكتاب بجواره ومال بصدره إليه وقال بهدوء تام: لا أزعم أنني أفضل من غيري، ولا أشكك في قدرات زملائي، ولكني إذا ما عقدت العزم على فعل شيء سأفعله مهما كلف الأمر......عاد بظهره إلى الوراء، واستطرد قائلاً وهو يعدل من وضع نظارته:وقد دفعني فضولي العلمي وتحديك لي واستهزاؤك بالعلم الذي أحبه كثيراً إلى أن أسمع مشكلتك، وأساعدك في حلها، بل أتحداك أني سأحلها..........

برقت عينا أحمد واستند بظهره إلى الوراء، وأخذ يرمقه بنظرات جمعت بين الأمل والشك والخوف..........فهو يخشى أن يتعلق بأمل كاذب لمجرد التحدي من طبيب ينقصه العقل كما يبدو له، يخشى أن ينتهي الأمر بالفشل كالمعتاد، فيتحطم أكثر وأكثر وهو لم يعد يحتمل مزيداً من الصدمات، وفي الوقت ذاته يخشى أن يضيع من يده فرصه ربما تكون المنجية له من بحر عذابه الدائم، قد تكون إشراقة الفجر الباسم...

طال الصمت بينهما لفترة ليست بالقليلة، لا يقطعها إلا ضجيج احتكاك العجلات بالقضبان الحديدية، وهوضجيج لا يقل عن جلبة الصراع الذي نشب في داخله، فهل يستطيع بعد كل آلامه أن يتسلق حاجز العجز العريض الذي يقابله في كل اتجاه؟أم أنه أملس ولا سبيل لتسلقه؟

مازالت تلك الابتسامة العذبة تزين شفتي الدكتور جمال، بينما يرمقه أحمد بنظرات تبدو في بعض الأحيان غير مفهومه إلى أن قال أخيراً:حسناً وماذا تريد إذن؟

مال بصدره مرة أخرى تجاهه وقال بصوت أقرب للهمس:أريدك أن تحكي لي كل شئ بالتفصيل، ولابد أن تتذكر جيداً أن التفاصيل الصغيرة قد تمثل أهمية كبيرة بالنسبة إلي، لذلك أريدك أن تسترخي وتستدعي ذاكرتك في هدوء تام ....

لاحت على جانب شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يقول:وهل ستصدقني؟

.هذا ليس من شأنك إنها مهمتي أنا على كل حال، صمت لبرهة ثم أردف قائلاً بفخر كبير:وقد مر علي الكثير كمـ.....

كاد أن يكمل لولا أن قطعته ضحكة أحمد المكتظة بالسخرية والاستهزاء، فخرجت نظراته تفصح عن أنه تلظى فوق نيران الغضب والشرار يتطاير من عينيه فانتبه لها أحمد وأدرك أن ما فعله كان خطأ كبيراً، ولكن ليس هذا ما جعله يتكلم، بل صدره الذي كاد أن يتفتت من ثقل الهم الذي يسكنه، فالأمل هراء بلا جدوى ومرايا اليأس تعكس صورته والحكاية جوفاء.

فلا أحد حتى الآن يعرف حقيقة ما حدث، ولا حتى الأطباء فقد خشي أن لا يصدقه أحد فيصعب عليه مساعدة حسناء أو رعاية ابنه، فليس مستبعداً أن يرموه بالجنون........

تنهد بقوة وهو يعود بظهره إلى الوراء، ثم قال باستسلام تام:سأحكي لك......سأحكي ما حدث بالتفصيل ولكن عدني ألا تقاطعني أبداً....

أومأ بعينيه موافقاً...

أغمض عينيه وبدأ يتذكر كل شيء، وكأنه يشاهد فيلماً سينمائياً لم يغب عن ناظريه لحظة من قبل.

*   *   *

انطلق أحمد بسيارته من أمام منزله، يبدو عليه الانتباه خلف عجلة القيادة، وإلى جواره حسناء تداعب طفلها الرضيع عمراً....صرخ عصام ذو الأعوام الأربعة، بعدما تشاجر كالعادة مع توأمته عزة، بسبب الجلوس إلى جانب النافذة في المقعد الخلفي.........

صاح فيهما غاضباً:ليس مجدداً...ألم آخذ منكما وعداً ألا تتشاجرا في الطريق؟!!!

حاولت حسناء أن تدفع غضبه فاستدارت إلى الخلف، وهي تقول بلهجة فاضت بالحنان مع قليل من العتاب:ليس هذا ما اتفقنا عليه.......

كانت حسناء تتسم بالرفق واللين والهدوء، وذلك على العكس تماماً من أحمد فهو سريع الغضب، وكثيراً ما يثور من ضجة الأولاد وشجارهم الذي لا يكاد ينقطع .

نظرت حسناء إلى ابنتها نبيلة وقالت:

.أغلقي النوافذ.

كانت نبيلة مهجه قلب أمها وأبيها، فمع أنها طفلة في العاشرة من عمرها، إلا أنها تمتلك رقة آسرة، فهي الفتاة المطيعة لوالديها والهادئة لدرجة أنك لا تشعر بوجودها، بل في نظرتها سحر ينسيك هموم الدنيا كلها.....

كانت تشبه حسناء إلى حد كبير، فقد ورثت منها الهدوء كما ورثت منها الجمال....

أذعنت لأمر والدتها فأغلقت النوافذ، ولم تبقِ إلا فتحة صغيرة للهواء.

تذمرت شيماء وهي تصغر نبيلة ثلاثة أعوام، وأخذت تردد بعبارات سخط غير مفهومة، فوكزتها نبيلة في كتفها، فصمتت بغير رضا......

استدارت حسناء للأمام وعينها تلمع فرحاً بنظرات الرضا والإعجاب التي يرمقها بها أحمد، فكثيراً ما كان يتمنى أن يحظى ولو بنصف صبرها وحسن سياسيتها في التعامل مع الأولاد، ابتسمت ابتسامة خفيفة وهي تعلم ما يجول بخاطره، فقد صارحها عدة مرات بإعجابه بحلمها، وقد كان قلبها يمتلئ سعادة بذلك، فالإنسان بطبيعته يفرح بعبارات المدح أكثر من غيرها، وأي عالم يسع المرأة عندما يمدحها زوجها.....أفاقت من غفوتها على صوت عمرو الذي بدا وكان الأمر لا يعجبه، فأطلق صرخة عالية سرعان ما تبددت عندما وضعت زجاجة الحليب في فمه....اتسعت عيناها دهشة من ضحكة أحمد العالية، ولكنه صمت ولم يعقب.

سألت نبيلة بهدوء متجاهلة الشجار الخفيف الذي ينشب بين الحين والآخر بين التوأمين المتشاكسين:متى سنصل يا أبي؟

أجابها وهو ينظر إلى انعكاس صورتها في المرآة وهو يبتسم: لايزال لدينا الكثير من الوقت بل لن نصل إلا في صباح الغد يا حبيبتي... نهضت شيماء بخفة وأمسكت بمقعد أبيها وهي تقول بطفولية: لماذا لم تأت عمتي لزيارتنا؟ فأولادها سمان للغاية ويستطيعون تحمل تعب السفر.....تعالت الضحكات بين أحمد وحسناء والصغيرة تنتقل ببصرها بينهما في بلاهة، فقد أطلقت عبارتها بعفوية تامة.

يعلم جيداً أن السفر من القاهرة للأقصر ليس سهلاً على الإطلاق، فالملل يصيب الأولاد من طول الطريق، كما أنه يخشى عليهم من الوعكات الصحية لتغيير الجو، ولكن حبه لأخته كان أكبر من كل هذه العقبات وأكثر، فليس لديه غيرها في هذه الحياة بعد وفاة والدته منذ سبع سنوات ليلحق بها والده بعد شهر واحد، ومع أن فاطمة تكبره بخمسة أعوام إلا أن رجولته تحتم عليه أن يقوم بمسؤوليته تجاهها.

* * *

بدأ الظلام يلف الطرقات بردائه حتى غرقت في ظلام ليل دامس، اللهم إلا بعض الضوء الخافت المنبعث من أعمدة الإنارة المتناثرة على حواف الطريق، والتي تعد من الكماليات التي تضعها الدولة لتحفظ ماء وجهها، وعلى كل حال لم يكن حال الطريق يختلف كثيراً عن حال البلد برمتها.

ظهر أمامه مفترق طرق فسلك الطريق الأيسر، سار فيه مسافة طويلة، وكلما تمادى فيه اشتد الظلام فتمنى لو كانت سيارته بعشرة مصابيح أمامية، بدأ الخوف يتسرب إلى قلبه، ولكنه حاول إخفاءه بعد أن قرأه بعيون حسناء، وهي تضع يدها اليسرى على قلبها وباليد الأخرى تضم صغيرها إليها.

حاول السيطرة على الموقف قبل أن تخرج الأمور من قبضته، ويتملك الذعر من قلوب الأولاد الضعيفة، الطريق يبدو مختلفاً تماماً هذه المرة لابد أنه سلك الطريق الخطأ، ولكن كيف

حدث ذلك؟! فهذه ليست المرة الأولى التي يزور فيها الأقصر، نظر إلى ساعة هاتفه فعلم أنه قد استغرق أكثر من ساعة في هذا الطريق، إذا فقد توغل فيه كثيراً، ولا سبيل أمامه سوى أن يعود أدراجه إلى مفترق الطرق فهو يخشى أن يسير في طريق مجهول لا يعرف عاقبته، فلا اعتداد بعامل الوقت الآن...

عزم أمره على العودة، أراد أن يستدير إلى الخلف ولكن توقف المحرك فجأة بلا إنذار، ضرب عجلة القيادة بقبضته عدة ضربات، ثم ترجل من السيارة مغلقاً بابها خلفه بعنف، دقت أجراس الرعب وحلق الخوف في قلوب الجميع، عاد إليهم يجر أذيال الخيبة بعدما فشل في اكتشاف العطل.

عاد إلى مقعده في صمت يتنقل بنظرات حائرة مترددة مابين ذلك الطريق المبهم وزوجته التي تردد المعوذتين وآيات أخرى، لم يطاوعه قلبه أن يخبرها أنهم سلكوا الطريق الخطأ، فقرر أن يحتفظ بهذه المأساة لنفسه.

بدأ الخوف يشتد في قلوب الأولاد بعد هبوب عاصفة قوية، حتى كاد صوت الريح أن يخلع القلوب من الصدور.

يقولون أن الجماعة تشد الأزر وتقتل الخوف في القلوب، ولكن ليس إذا كنت مسؤولاً، عنهم فلو كان الأمر متعلقاً بك وحدك لكان الخطب أهون بكثير.

نزل من السيارة للمرة الثانية، وصوت الرياح يكاد أن يصم أذنيه، ثم وضع يده على وجهه، ليحتمي مما تلقي به الريح من الحصى والرمال، نظر من بين أصابعه للطريق وهو يدور حول نفسه، ارتسمت ابتسامة نصر على شفتيه وهو يصيح: لا داعي للقلق فكثيراً ما تتعطل السيارات على الطريق، وقد وجدت من يساعدنا، هلل الأولاد فرحين ببشارته، بينما ابتسمت حسناء ابتسامة قلقة، حاول أن يتحاشى النظر إليها وهو يشير: وجدت منزلاً هناك، وسنستأذن أصحابه في المبيت حتى نجد حلاً في الصباح ......

نزل الجميع من السيارة تاركين معظم أمتعتهم فيها، بعد أن تأكدوا من إغلاقها جيداً....حاولت حسناء جاهدة أن تحمي صغيرها من عصف الريح التي لا تفرق بين صغير أو كبير، بينما أخذ أحمد بيد أولاده في ذلك الطريق غير الممهد الذي يكسوه الحصى وتتناثر فيه الحجارة الضخمة التي تعوق السير، اختلط صفير الريح مع صفير الحشرات وصرخات طيور الليل، ليزداد الطريق وحشة........

كادت الأقدام أن تهوي عدة مرات، توقفت حسناء فجأة، وأمسكت بذراع زوجها، ثم قالت ترجاه:دعنا نعود إلى السيارة، فنمكث فيها حتى الصباح، أو ربما تمر سيارة أخرى تنقلنا معها.....صمتت للحظات ثم تابعت بشرود:لا أعرف لماذا يزداد خوفي كلما اقتربنا من هذا البيت، لا أظن أننا سنكون بأمان هناك.........

قال محاولاً تهدئتها: ماذا يمكن أن يكون في البيت؟!ثم من قال لك أننا سنكون بأمان في السيارة انظري إلى هذا الجو لا يمكنني أن أخاطر بحياتكم، كما أنني أخشى من قطاع الطرق......الأمر كله سويعات معدودة حتى يطلع النهار وتهدأ الريح........لم يكن واثقاً تماماً مما يقول، لكن عليه أن يظهر التجلد أمامها، وأمام الأولاد حتى وإن كان القلق يعبث بداخله، ويأكل ما تبقى من تحمله، فالمجهول من شأنه دائماً أن يبعث الرهبة في النفوس، ولكن ليس لديه خيار آخر....... استجابت لكلامه على مضض، فتابعوا السير والهواجس ترافقهم في كل خطوة، وتملأ عقولهم بضجيجها، فكأن الشيطان قد أطلق سهامه عليهم.....

كان البيت مُحاطاً بمجموعة من الأشجار الغريبة بطولها المفرط، وفروعها السوداء التي تتدلى منها أشياء كالحبال، وكانت الرائحة الكريهة تنبعث في كل الاتجاهات....

وقفوا أمام البيت مباشرة، بيت عتيق ومخيف، قد غطى بابه نسج العنكبوت وكثير من الغبار، وكأن أحداً لم يفتح بابه منذ سنين.

بخطوات مترددة وأيد مرتعشة طرق الباب الخشبي القديم أكثر من مرة دون رد، اقتربت منه حسناء ونظرت في عينيه بخوف ورجاء وهي تقول: دعنا نعود إلى سيارتنا لا أحد هنا.

التفت إليها بغضب عارم وصاح فيها:قلت لك سنمضي هذه الليلة هنا سواء كان أحد بالمنزل أملا.فليس بإمكاني أن أغامر بسلامة أولادي من أجل أوهامك ومخيلتك الحمقاء.

ربما أراد بغضبه أن يقذف بالقلق المستعر في داخله، لكن ذلك لا يخفى على حسناء، فهي زوجته منذ عشر سنوات، قد حفظت فيها طباعه، وعرفت فيها كيف تقرأ خبايا نفسه بسهولة.

* * *

نظرت إليه بإشفاق فقد تأكدت الآن أنه يشعر بمثل ما تشعر به تماماً، ولكنها لا تدري كيف يقدر هو حجم الخطر!

عاد إلى طرق الباب مرة أخرى دون استجابة فقرر أن يدفع الباب بقوة، وكانت المفاجأة..فقد تحرك الباب، فتسلل من خلفه شعاع نور يكبر شيئاً فشيئاً، ابتلع ريقه بصعوبة وهو لا يدري كيف يبتسم، وقد تسارعت نبضات قلبه وقد تسارعت وكأنها تنذر بخطر بات قريب الوقوع.

ما هي سوى لحظة ولكنها مرت كسنة ثقيلة، حتى امتدت يد أحدهم تفتح الباب عن آخره، كان صوت صرير الباب مخيفاً، وكأنه لم يفتح منذ سنين!

برزت من وراء الباب عجوز في العقد السابع من عمرها، تحمل في يدها شمعة انعكس لهيبها على ملامح وجهها التي امتلأت بالتجاعيد، وقد أخذ الزمان من علامات تلك المنزل المخيف فوضعها في وجهها، نظرت حسناء إلى المرأة صاحبة البشرة السمراء والعينين الزرقاوين، فتملك الخوف من قلبها وأمسكت بيد أحمد وهي تضم صغيرها إلى صدرها، ازدرد أحمد ريقه بصعوبة وهو يحدق في المرأة ذات المعطف الأسود الطويل، والحذاء ذي الكعب العالي.

حاول أن ينطق فخرج صوته كالهمس، وقف يستجمع شتات نفسه ثم رفع صوته قليلاً:

تعطلت سيارتنا ومعي أطفالي الصغار، ولا يمكننا المبيت في العراء، فهل تأذنين لنا في المبيت هذه الليلة؟

نظرت بعينيها الزرقاوين في عينيه مباشرة، فسرت قشعريرة باردة في جسده، وساد الصمت في المكان حتى أشارت لهم أن يدخلوا.

استدارت العجوز إلى الداخل بخطوات ثقيلة، وصوت حذائها يصدر صوتاً يشبه الأنين، تقدم أحمد بخطوات مترددة تتبعه حسناء والصغار.

دارت عيونهم في المكان الذي بعث الرهبة في نفوسهم بحيطانه القديمة الكئيبة التي غطاها الغبار فأخفى لونها، فبانت كما لو أنها ستنهار إذا اتكأ أحدهم عليها.

استقرت عيناه على النوافذ المحطمة، التي يزحف البرد من خلالها فباتت لا فائدة منها على الإطلاق، وكأنها والشارع سواء.

تنقل ببصره في المكان فوقف على رجل مسن بجوار الدرج الذي يتوسط المنزل، يرتدي بنطالاً أسود ومعطفاً رمادياً وقبعة سوداء انعكس لونها على عينيه الزرقاوين الصارمتين، اتسعت عيناه دهشة حينما لاحظ التماثل بين عينيه وعيني تلك العجوز، وأنفيهما الكبيرين.

صوب نظره على شفتيه العريضتين، ينتظر منه أن ينطق بكلمة، ولكنه خيب ظنه ولم يتفوه بحرف واحد، فقط ظل يرمقهم بنظرات غير مفهومة، حتى مزق أحمد الصمت بسؤاله:معذرة سيدي!هل تأذن لنا في المبيت هذه الليلة؟

وقبل أن ينهي كلامه استدار الرجل إلى الخلف بلامبالاة، ودخل إحدى الغرف بجوار الدرج ولم يبدي ترحيب أوانزعاج!

شعر أحمد بأنه بحاجة إلى أحد يقويه أو يفسر له ما يحدث، كي يطمئن قلبه ولو بشكل مزيف، نظر إلى حسناء فوجدها غارقة في بحر دهشتها من ذلك الغموض الذي يشوب البيت وأهله.

عكف في مكانه لدقائق ينظر إلى أولاده فيزداد قلبه اضطراباً حتى ظهرت السيدة العجوز أعلى الدرج وأشارت إليهم بالصعود، كان المكان خالياً من الإضاءة إلا في الردهة، وكان السلم مظلماً لولا ضوء خافت صادر من شمعة تمسكها بيدها، أشار بيده إليهم للصعود فأومأت حسناء برأسها موافقة.

صعدوا السلم ببطء، وفجأة انكمش الأولاد وصاحوا عندما هبت ريح قوية فتحت النوافذ المحطمة على مصراعيها، وأخذت تخوض حربها مع الأشجار بصوت يصم الأذان ويخلع القلوب، غير مبالية بهؤلاء الصغار أصحاب القلوب الضعيفة.

أمسك بيد أطفاله فسرت في جسده رعشة من أيديهم المرتجفة، كاد الخوف أن يقتله لولا شعوره بالمسؤولية، حاول أن يبتسم مطمئناً لهم فخانته شفتاه وأبتا أن تتحركا، فاستدار بوجهه على الفور خشية أن يفتضح أمره........

ساروا خلف العجوز في ممر مظلم على ضوء شمعتها الخافت، إلى أن فتحت ثالث غرفات الممر، ثم تركتهم وتابعت سيرها بالخطوات نفسها وابتلعها الظلام ....

كانت الغرفة غارقة في ظلام دامس فساروا ببطء وحذر شديدين، أخرج هاتفه يسترشد بضوئه ليبحث عن أزرار الكهرباء، إلى أن وجدها خلف الباب وما إن وضع يده عليها حتى انتفض جسده وتراجع تلقائياً إلى الخلف، اقتربت حسناء منه وقد بلغ القلق منها مبلغه، ووضعت يدها على كتفه، فربت على يدها مطمئناً وقال:لا عليك، فقط ماس كهربائي، وسأحاول إيجاد حل آخر، أخذ يتجول بهاتفه في الغرفة التي ملأها التراب، إلى أن وجد علبة ثقاب وشمعتين في درج يفصل بين سريرين صغيرين، أشعل الشمعتين وثبتهم، وألقى بجسده على كرسي بجوار السرير الأيمن والذي قد اتخذته حسناء وعمرو ونبيلة .

دقت ساعة عتيقة لتعلن تمام الواحدة صباحاً، كان الأولاد قد سبحوا في نوم عميق، نظرإليهم نظرة حاسد، ليتنا لم نكبر يوماً، ليتنا نظل صغاراً فلا نعرف شيئاً، ولا نقدر حجم المخاطر، لا نشغل بالنا بالمستقبل، فلا نخاف مما هو آت، ولا نعلم معنى الحاضر فلا نيئس مما هو واقع، ولا نلتفت إلى الماضي فتقضي علينا الأحزان.

نظرت حسناء إلى سقف الغرفة المظلم إلا من بقعة ضوء ارتسمت من ضوء الشمعة الخافت، كان السقف يحتوي على رسومات لحيوانات متوحشة، وأشجار غريبة الشكل، تنهدت

بقوة ثم قالت بصوت خافت خائف:لابد أن نغادر هذا المكان في أسرع وقت....كان ينصت إليها وهو ينظر إلى تلك النوافذ المغطاة بستائر داكنة وقد حجبت خلفها عالماً مليئاً بالغموض، تمنى لو أن عنده من الجرأة على اكتشافه.

أعاد ببصره إليها فوجدها قد أغلقت عينيها الصغيرتين، وانسدلت خصلة من شعرها الأصفر على وجهها الرقيق الذي غادره هدوؤه المعهود....زفر بقوة....يشعر بهمّ ثقيل، وليته يعلم ما يفعل؟!...

لو كان قلبه يكشف الغيب، لاشتعل عقله تمرداً رافضاً خضوعه لهواجس الشر......

أسدل ستائر عينيه وحاول أن يستسلم للنوم لعل القلب يهدأ، تطارده الهواجس فتقض مضجعه، حاول التغلب عليها إلى أن انتبه إلى صوت شيماء وهي تبكي وتجذبه من يده:

.ما الأمر؟!ولم استيقظت الآن يا عزيزتي؟!

نظر في ساعة هاتفه الذي يحتضنه بين راحته فوجدها السادسة صباحاً....اتجه ببصره نحو عينيها الخائفتين وقد انهمرت منهما الدموع، ففزع قلبه الذي غادر سكناته منذ البداية......

.قولي ما الأمر؟

قالت بصوت متحشرج، وهي تحاول أن تكف عن البكاء: عزة كانت نائمة بجواري وحينما تقلبت لم أجدها.......دخلت في نوبة بكاء طفولي، انتفض من مكانه في ذعر شديد، أخذ يتفقد الغرفة بعد أن أزال الستائر عن النوافذ، لم يكن في الغرفة مكان للاختباء به، جثا على ركبتيه يبحث عنها تحت الأسرة، فدائماً ما كانت تمارس ألاعيبها معهم...... في كل نظرة يتخيل أنه سيجدها، وضع يده على رأسه بتوتر شديد، لاحظ أن باب الغرفة مفتوح، لم يكن واثقاً تماماً إن كان قد أغلقه أمس، فعقله بين متاهات الشتات.........

استيقظ الجميع على صوت تفتيشه الغرفة وبكاء شيماء المستمر.

التقطت نبيلة نظارتها في عجلة لتضعها علي عينها، وهي تقول بفزع: ما الأمر؟بينما أخذت حسناء تمشط الغرفة بنظرها، ثم نهضت مفزعة وهي تقول:أين ابنتي عزة؟!

*   *   *

خرج من غرفته وهو لا يزال بمعطفه الرمادي القصير، سار بخطوات رتيبة مملة إلى أن استقرت قدماه أمام إحدى النوافذ بالردهة، ينظر بشرود وهو يضع يديه في جيب معطفه، إذا تأملته من بعيد تشعر وكأنه يستمتع بالفضاء الذي يحيط بالمنزل، ومن لا يحب أن يقضي بعض الوقت في معزل عن تطفلات البشر!

ولكن إذا ما اقتربت من عينيه تجدها تسبح في عالم آخر، ربما لا ترى ما يحيط بها، عالمِ يشوبه الكثير من الغموض المخيف!!!

تسللت إلى شفتيه ابتسامة خفيفة ظهرت معها أسنانه الصفراء التي يتوسطها سنّان من الفضة، وما لبثت حتى اختفت من جديد ليحل محلها ذلك الجمود الذي يعلو قسمات وجهه الغليظ!

لم تكن الشيخوخة هي التي رسمت الغلظة والقسوة في ملامحه، ولا حتى الجمود الذي لا يكاد ينفك عنه حتى يعود إليه بعنفوانه من جديد.....ومع ذلك كله فقد كان القليل من علامات الرضا على وجهه ولم يكن ذلك موجوداً أمس!

* * *

وقفت نبيلة خلف أمها وهي تحمل عمراً الذي فشلت في السيطرة على بكائه المتنامي، تجاهلت حسناء بكاء عصام وتشبثه بها، وهي تقف بعينين دامعتين تسأل بصوت خافت أين ابنتي؟ ثم ارتفع صوتها:أين عزة؟

لم يكن أحمد ليتمالك أعصابه أمام صرخاتها وبكاء الصغار، فأخذ يلوح بيده بعصبية: لا أدري لعلها خرجت إلى مكان ما في هذا المنزل......صمت قليلاً ثم قال بصوت منخفض:لا أظنها خرجت من هنا.....وقفت تنظر إليه والدموع تغرق خديها، اقترب منها ووضع يده على كتفها وهو يقول بحنان: اطمئني سأبحث عنها في كل مكان.......وسأجدها حتماً.....أين يمكنها أن تذهب؟! ألا تعلمين مزاح عزة!!! لابد وأنها قد اختبأت في مكان ما.

هم بالانصراف فأمسكت بيده قائلة برجاء:سوف نأتي معك لا تتركنا هنا...

قال بنفاد صبر: حسناً، كما تريدين.

* * *

أطلقت عدة صرخات مكتومة، وهي تحاول فك قيودها، لم يزعجها ظلام الغرفة ولا الحشرات التي اتخذت من جسدها مسكناً، ولا حتى رطوبة المكان، بل إن الآلام التي تسببها لها تلك القيود التي تقبض على معصمها بقوة لم تكن لتمثل أي أهمية بالنسبة لها.

لها غرض آخر وهدف بحجم الأفق، وهي على استعداد أن تعبر النار بجسد عار من أجل الوصول إليه!

أخذت تزحف بجسدها النحيف على أرضية الغرفة، وهي تعلم جيداً أنه لا أحد يمكنه العثور عليها فيها.

تقبع في هذا المكان منذ زمن بعيد، قليلاً ما كانت تحاول الهروب، ثم إن محاولاتها القليلة السابقة كانت عديمة الجدية، ولكن لم أرها اليوم تحاول الخروج بإصرار شديد، وكأنها تشعر بتلك التغيرات التي تحدث؟!

بدأت صرخاتها مكتومة، ثم أخذت تعلو وتعلو حتى صارت أشبه بزئير الأسد، ولكنمهما ارتفع

صوتها فلن يسمعها أحد، بل حتى انحناء جسدها كالثعبان لن يساعدها في فك قيودها، لقد ارتكبت خطأً كبيراً وهم أقوى منها بكثير!!

لقد قرروا معاقبتها، ولن تستطيع أن تنجو من أيديهم!!..

* * *

وقف بمنتصف الردهة يبحث بعينيه عنهما، إلى أن وجد تلك العجوز تجلس في البهو فذهب إليها بخطوات سريعة وهم يتبعونه، كانت تجلس على كرسي كساه التراب شأنه شأن باقي المنزل تمسك بيدها حجراً أحمر صغيراً، ترسم به علامات ونقوشات غيرَ مفهومة على أرضية الغرفة التي غطتها الأتربة.

وقف أمامها مباشرة وقد طمس بقدميه ما فعلته، ثم قال بصوت أجش:استيقظت فلم أجد ابنتي، فهل رأيتها؟

صمتت قليلاً والوجوه تطالعها بلهفة إلى أن هزت رأسها نافية.....

.سنبحث عنها في المنزل...

نطقت بها حسناء بلهجة متقطعة وهي تبكي وتدنو منها. فهزت كتفها بلامبالاة.

عقد حاجبيه وهو مندهش من موقفها، فقد كان ينتظر منها أن تتصرف كأي امرأة، تقفز من مكانها بهلع، ترسل إليهم عبارة الطمأنينة، تبحث معهم، وتحتضن الأولاد.

أشار لحسناء بأن يبدؤوا بحثهم في الطابق العلوي فصعدت خلفه دون كلام....... كان هناك ممران، سلكوا الممر الأيمن وبه ثلاث غرف، وقد قضوا ليلتهم في واحدة منها.

فتح أحمد باب الغرفة الأولى، فأصدر صريراً عالياً، وخرج منها عدة خفافيش تخوض حرباً معهم، حاول جاهداً أن يبعدهم عن الأولاد الذين أطلقوا عدة صرخات متوالية، يصحبها بكاء عمرو والذي كانت حسناء تحميه وتضمه إلى صدرها كعادتها.....

أشار لهم أن يبقوا خارج الغرفة ثم دخل بحذر، ارتسمت علامات الدهشة على وجهه، لم يعد الخفاش موجودا!!

تجمد في مكانه للحظات، ثم أخذ يتفقد الغرفة بحيطة شديدة.....

كانت الغرفة كبيرة إلى حد ما، وفيها مجموعة من الأثاث الهش قد تراكم فوق بعضه بطريقة عشوائية.

أخذ يرفع الأغطية عنه ولم يستطع أن يخفي ذلك الخوف الذي بدا جلياً في لمساته وحركاته، سعل بشدة من رائحة الأتربة التي كانت تملأ الغرفة.....

عزة......عزة.......

لم يأته رد، وفجأة أغلق الباب، فاستدار إلى الخلف بفزع وجرى نحو الباب، امتدت يد

أحدهم تمسك بقدميه فسقط على وجهه، نظر نحو قدميه فلم يرَ شيئاً، ولكنه مازال يشعر بتلك القبضة الحديدية التي كبلت حركته، أخذ يتنقل ببصره بين قدميه و باب الغرفة الذي ارتفعت من ورائه صيحات الأولاد ونحيب حسناء وهم يحاولون دفعه بأجسادهم الضعيفة، صرخ متألماً فكأنما غرست سكين بكعب قدمه اليسرى........

انفتح الباب فدخلت حسناء والصغار في خوف و ذعر، أسرعت بوضع يدها على فمها تكتم صرختها، وهي ترى الدماء تسيل من قدمه، جثت على ركبتها بجواره وقالت في هلع:ماذا أصابك؟!!!

أجاب بصوت خافت وهو مازال يتألم: لا تقلقي سأكون بخير.....

ساعدته حسناء حتى أخرجته من الغرفة، ثم جلس في الممر أمام الغرفة يستند برأسه على الحائط المقابل لها، أخذت تضمد له جرحه، أفاق من شروده عندما توقفت حسناء، ظنها قد انتهت ولكن الدهشة التي كانت تعلو وجهها تقول:إن في الأمر خطباً ما، استقر بصره على قدمه المصابة، فاتسعت عيناه عن آخرهما هو الآخر، لا يوجد أي أثر للجرح النازف، وكأنك قد سكبت بعض الدماء على قدمه فقط!! ولكن ماذا عن الألم الذي يشعر به؟! لم يعقب أحد منهما، بل تبادلا بعض النظرات التي لم تدم طويلاً.

نهض والإصرار يملؤه، لا بد أن يمحو كل العقبات من أمامه، لابد أن يصل إلى ابنته مهما كلفه الأمر.

سار وهو يتحامل على نفسه متناسياً الألم الذي يغزو قدمه.....

كانت الغرفة الثانية خالية تماماً من أي شيء، هادئة إلا من صوت واحد فقط؛صوت يشبه صوت عداد القنبلة الموقوتة يرتفع أكثر فأكثر ليدق صداه في مسامعه، قررأن يبقي الأولاد خارج الغرفة ففعلوا على مضض، دلف إلى الغرفة بحذر شديد، ولكن أين سيبحث عن مصدر ذلك الصوت فالغرفة خاوية على عروشها......

مشط الغرفة ببصره إلى أن وجد على الحائط الأيمن صندوقاً صغيراً جداً مثبتاً عليه، سار نحوه بخطوات بطيئة، وقد تصبب العرق من جبينه مع الانخفاض الشديد في درجة الحرارة، اقترب من الصندوق، ومع اقترابه يرتفع الصوت، حتى أصبح متيقناً أن الصوت يأتي منه، وبيد مرتعشة حاول أن يفتح الصندوق، لكن باب الغرفة قد أغلق قبل أن يفعل، وانفلق الحائط نصفين، وهو يقف متسع العينين من فرط دهشته وخوفه، لا يدري ماذا يفعل، ولم يكن لديه وقت للتفكير في أي شيء، شعر كأن شخصاً ما دفعه من الخلف بقوة ليسقط من أعلى الدرج الذي ظهر بعدما انفلق الحائط.

أخذ يتنقل بجسده على أرض غير ممهدة، يكسوها حصى أسود وأحمر.أخفى عينيه بيده ليحجب عنهما ذلك الضوء المنبعث من الحصى الأحمر الذي كان يضيء كأنه جمرات متناثرة،

نظر إلى أعلى الدرج فوجد أن الحائط قد عاد كما كان! لقد أصبح محبوساً بين أربعة جدران بلا أي فتحة للتهوية مما جعله على وشك الاختناق، كاد قلبه أن يقفز من بين ضلوعه حينما شعر بتلك اليد تستقر فوق كتفه اليسرى، أغمض عينيه للحظات وهو يردد كلمات هو نفسه لم يفهمها، كان يحاول قراءة المعوذتين، لكن ذاكرته خانته هي الأخرى، ففشل في تذكر أي آية، فصارت شفتاه تتحركان بلا معنى واضح، مازالت تلك اليد موضوعة على كتفه تحاول الزحف ببطء إلى عنقه، حاول أن يستدير بوجهه لكن رقبته لم تستجب له.

تجمد الدم في عروقه، وغطت حبات العرق وجهه الشاحب شحوب الأموات، وحاول أن يستدير كلياً ولكن قدميه أبتا أن تتحركا، وكأنهما مثبتتان بالأرض، ضغط على نفسه كثيراً حتى استطاع فعلها، وفجأة رأى ضوءاً يلمع كالبرق الخاطف، وارتفعت عنه تلك اليد التي كانت قد امتدت بالفعل إلى عنقه، لم تقوَ قدماه على أن تحمله فسقط أرضاً.

* * *

نزلت السلم بخطوات سريعة محفوفة ببكاء الصغار، وقفت في منتصف الردهة تتلفت حولها كالمجنونة، وهي تبحث بعينيها عن أي أحد يطفئ النار المشتعلة بداخلها، تبحث عن أحد يساعدها فلا يمكنها تحمل فقدانه بعد أن فقدت ابنتها، صاحت دون وعي:أين أنتم؟.........أجيبوني؟!.........أين أنتم؟

خرجت من غرفة بجوار الدرج، تسير بخطوات ثقيلة اتجاهها، والجمود يعلو وجهها واللامبالاة تظهر واضحة في ملامحها، انكمش الأولاد خلف حسناء التي صاحت بغضب قد امتزج بالشك:من أنتم؟وما هذا المكان الغريب؟ ولماذا لم تبحثوا معنا عن ابنتي؟أليس هذا منزلكم؟أليس من حقنا أن تساعدونا؟

ارتفع صوتها أكثر عندما رأتها تتجاهل كل كلامها، وكأن الأمر لا يعنيها على الإطلاق، ثم قالت بلهجة صارمة وهي تشير بيدها إلى الطابق العلوي: زوجي في الغرفة الثانية، وقد أغلق الباب فجأة، ولم يعد كلانا يسمع الآخر، ولابد أن تساعديني.....أتفهمين؟! لابد أن تساعديني.

لمعت عين العجوز بضوء غريب، وبدت ابتسامة سخيفة على جانب شفتيها، وحسناء تحدق بها بتحدٍّ واضح...... متجاهلة بكاء صغارها، والدموع التي أغرقت وجنتيها.........صعدت مع المرأة العجوز، وقفت بإصرار شديد تدق الباب بعنف، ولكن دون جدوى....... هتفت بغضب:هذا منزلك أليس كذلك؟

فأومأت برأسها: أن نعم.........

.إذاً فعليك أن تفتحي هذا الباب اللعين.

ركلته بقدمها ثم وقفت بشرود تحدث نفسها:أخشى أن يكون قد أصابه مكروه، كيف يمكنني أن أعيش بدونه؟

رفعت سبابتها في وجه العجوز، وهي تقول بحزم:

عليك أن تفتحي هذه الغرفة، وإلا فلن تفلتي مني أبداً......اسمعي لا يمكنك الاستهانة بي فحينما يتعلق الأمر بزوجي وأبنائي فاني أعدك بجحيم لا طاقة لك به.....

ليست متأكدة إن كان يمكنها ذلك، ولكنها تشعر أنها تملك قدرة فائقة وغضباً عارماً، يمكنه تحطيم جسور الحياة المريرة، ودقات قلبها تنذر بطوفان قادم، فلطالما كان أحمد سندها، وبه تمسك زمام القوة لتغلق في وجه اليأس ألف مقبض.

* * *

"أنا القوية ممتدة الجذور أنا البعيدة عن مرمى العين ومتاهات البحور، أنا سلاح ذو حدين، فإن أنت تمردت علي، ستصبح حتماً مقتولاً، وإن أطعتني سأزين طريقك بالنور.

قم وانهض فأنت في عالمي، تتحرك في لعبة وضعت أنا قواعدها، وحتما سيجيء عليك الدور...عليك أن تضحي كي أنعم، وتستسلم كي أروي ظمئي، ففي كل الأحوال لن تستطيع مقاومتي، فأنا معقل الشر أدير العالم وأنا معصوبة العينين....."

نهض من مكانه مفزوعاً، وهو يبحث عن مصدر ذلك الصوت الذي يأتي من قاع بئر سحيق، كرنين قوي يتردد في المكان، فلم يجد أثراً ولا صوتاً......وقف يصرخ على أمل أن يتلقى أي جواب:من أنتِ وماذا تريدين مني ولماذا تلعبين بنا هكذا؟

تعالي إلي حدثيني......إن كنتِ قادرة على مواجهتي، صمت قليلاً وقد جاوبه الصمت، فصاح وكأن به طيفاً من الجنون:أين ابنتي؟ماذا فعلتِ بها؟ بربكِ لم تفعلين بنا كل هذا؟

جلس على السلم وقد أنهكه التعب، دفن رأسه بين كفيه وقد يئس من الإجابة.

نعم لقد سقطتَ في الهاوية، مكبل اليدين، مسلوب الإرادة، لا حول لك ولا قوة..أين عقلك العبقري؟لماذا أراه متوقفاً الآن؟!

أتتذكر دائماً ما كنت تردد:أن عقلك لن يستطيع التوقف إلا إذا فارقت روحك جسدك فهل حان موعد الفراق؟وعما قليل تصبح جثة هامدة؟!

لا فأنا أستطيع أن أسمع دقات قلبك المتسارعة، وأنفاسك المتلاحقة.....إذاً فإنك لم تمت بعد....أنت من أتيت بهم إلى هنا وعليك الآن أن تخلصهم ....ماذا تنتظر؟!

أتعلم ما الذي يمكن أن يكون قد حل بهم؟

هيا استجمع قوتك من جديد، فلطالما كنت تحلم أن تعلم أولادك عدم الاستسلام، واليوم أراك تضرب لهم أروع الأمثلة في كيفية الاستسلام! بل أراك معلماً فاشلاً وأباً عاجزاً.

* * *

اقتربت من الباب بخطواتها الثقيلة، وهي تنظر إلى حسناء نظرات غير مفهومة، وببطء وضعت يدها على المقبض، وما هي إلا حركة واحدة حتى فتح الباب.

وقفت تتنقل ببصرها بين تلك المرأة الغامضة وبين الباب الذي بدا وكأنه يعمل ببصمة يدها المرعبة ذات الأظافر الطويلة.

وقفت حسناء تنظر لأحمد متفحصة، والأسئلة تحتشد بعينيها، لكن نظرته المرعبة منعتها من الكلام، ظل ينظر خلفها بنظرة مزجت بين الغضب والدهشة، ضاقت عيناها بعدم فهم، وعقدت حاجبيها باستنكار، فلم تتلقَ منه أي ردة فعل، استدارت بوجهها إلى الخلف، ثم عاودت

النظر إليه مرة أخرى دون فهم، فجاءت صرخته كالريح بين الجبال لتشعل النار في صدرها:أين شيماء؟

التفتت بسرعة البرق فاصطدمت نظراتها بنظرات الدهشة التي ملأت وجه نبيلة وعصام، وكلاهما ينظر للآخر بقلق بالغ، وجه كلامه للعجوز، وقد أطلق للسانه العنان، فانهال عليها سباً، وألصق بها بكل التهم، وحملها مسؤولية اختفاء بناته، ثم رفع سبابته في وجهها مهدداً بقتلها إن لم تفصح له عن الأمر كله.

كانت شرارات الغضب تتطاير من عينيه، وقد أخرج كل ما اختلج بصدره من كره لها منذ أن رآها أول مرة، أفرغ شحنة الغضب والخوف، وهو يشعر بطاقة تجعله قادراً على أن يطفئ الشمس، فعندما يتعلق الأمر بفلذات كبده فلا تنتظر منه سوى أن يتحول إلى أسد جريح ينقض على كل من وقف بوجهه ليسقطهم جثثاً هامدة دون تردد.

تجاهل محاولات حسناء لإسكاته، فلم يكن يعبأ بما ستقوله، يعلم أنها ليست إلا محاولات لإطفاء جذوة غضبه.

تلك النظرات الجامدة التي انطلقت من تلك العيون الزرقاء، والابتسامة السخيفة التي تلوح على تلك الشفاة العريضة، كانت كحطب ألقي في النار فزادها اشتعالاً.

صمت قليلاً، ولكن ثورته لم تهدأ بعد، وعيناه معلقتان بالغموض الذي يحيط بتلك العيون الزرقاء، فجاءت عبارات حسناء المتقطعة يشوبها نحيب نبيلة وعصام، وهي تنفي أن تكون لتلك المرأة علاقة باختفاء شيماء، فأردفت قائلة:لقد كانت تصحبنا إلى هنا وشيماء برفقتنا ولم تتركنا لحظة.

تصلب في مكانه وقد تجمد الدم في عروقه، فقد وقعت كلماتها عليه كفأس شق رأسه نصفين، فإن لم يكن لتلك المرأة دخل في اختفاء شيماء فمن يكون إذاً؟!

شعر بنار داخله تعصف بكيانه، وقلبه يعتصر ألماً لقلة حيلته، يتوجس خيفة من أن يكون قد خسرهم للأبد، أفاق من شروده على صوت بكاء حسناء، وهي تجذبه من سترته بعنف وترجاه أن يستمر في البحث عنهما.

وهل كان بحاجة إلى رجائها!!!

يمكن أن تكون الأمأكثر حناناً وعطفاً، ولعلها أكثرإحساساً ومعرفة بأولادها، ولكن عند فقدان الابن فكلاهما متساويان، فتلك العاطفة الجياشة قد فطرهم الله عليها بالتساوي دون زيادة أو نقصان، فتلك القوة التي يلتحف بها الرجال في المظهر فقط، لكن نيران القلوب واحدة، فالأب يستحق الشفقة أكثر من الأم التي تستطيع أن تبوح بدموعها عما في داخلها.

ظل ينظر إلى رجائها باندهاش كبير، ألهذا الحد تظنني بلا مشاعر!!!

فقط تمنى لو تعلم أن النيران المشتعلة بداخلها ماهي إلا ترس صغير في آلة كبيرة بالنسبة

للبركان الذي يثورفي صدره، يشعر وكأنه طائر أصابه دوار وارتطمت رأسه بالجبل فسقط مغشياً عليه، امتدت يده بلطف إلى يدها المعلقة بسترته، وربت عليها بحنان محاولاً تهدئتها، فمع انزعاجه من عدم تفهمها لمشاعره، إلا أنه لا يستطيع معاتبتها على الأقل الآن، وإلا سينتهي أمرهم جميعاً بموتة رخيصة أو.....!

نظر بجواره إلى حيث تقف تلك المرأة الغامضة، وبداخلة بركان الغضب يغلي، ينتظرها إن لم تستجب له وتساعده في الخروج من مأزقه، تبخر كل ذلك عندما وجد مكانها خالياً.

تبادل مع حسناء نظرات الدهشة نفسها، فلم يشعروا بانصرافها...نزلوا من الغرفة ووقف في منتصف الردهة يصرخ وينادي دون مجيب!

اتجه إلى الغرفة بجوار السلم، وحرك مقبض الباب بعنف حتى كاد أن ينخلع بيده، فوجدها خالية تماماً من أي أحد، أين ذهب هؤلاء؟!

انتبه ليد حسناء تربت على كتفه، تنبهه إلى ذلك الصوت القادم من المطبخ، فسار ببطء يعتاره رعشة خفيفة في أطرافه، فوجد العجوز منهمكة في إعداد الطعام، سار نحوها حتى أصبح على بعد خطوتين منها، مال إليها وهمس في أذنيها بشيء لم يصل إلى مسامع حسناء، فعقدت حاجبيها باستغراب، ترى ما هذا الأمر الذي لا يريدها أن تعلمه؟!

علت البلاهة وجهها، وهي ترى تلك المرأة تلتفت إليه بذعر، وتفرك أصابع يدها بتوتر لم تستطع إخفاءه، وجه إليها نظرات التحدي، ولم ينتظر منها رداً، بل إنه اكتفى بما أبدته ملامحها، عاد إليهم وقد زادت نظراته حدة وهو ينظر إلى ذلك المسن الذي أتى خلفهم يطلق نظرات استفهام إلى زوجته العجوز، ثم يعود بنظراته إلى أحمد الذي وقف أمامه مباشرة، ليتبادل معه نظرات متصارعين على حلبة المصارعة.

أمسك أحمد بيد حسناء وهو يسحبها خلفه، يبحث بعينيه بتركيز شديد وهي تنظر إليه بعدم فهم، لا تدري ماذا دار بينهم، هتفت بنفاد صبر بعد أن فشلت في اختراق هالة الغموض التي طرأت عليه:هل ستبقى هكذا كثيراً؟

توقفت نظراته الحائرة عليها وكأنه نسي وجودها:يجب أن نتصرف بحذر ولا يترك بعضنا، وإياك من الوثوق في هؤلاء.....قالها وهو يشير بيده إلى المطبخ.

فقد نجحت بالونة اختباره التي رماها إليهم منذ قليل، ولم يعد لديه أي مجال للشك، أصبح على يقين أنهم السبب الرئيسي في كل ما يحدث.

استطرد قائلاً وهو يحدث نفسه بصوت تسلل رغماً عنه إلى مسامع حسناء: لابد وأن نخرج من هنا في أسرع وقت ممكن وبأقل الخسائر، كادت أن تنطق فانصرف من أمامها قاطعاً عليها أي فرصة للحديث، فهو يعلم ما ستقوله جيداً وهي محقة، فقد حذرته كثيراً ولم يعرها أي اهتمام.

سارت خلفه تمسح دموعها بأنامل مرتعشة، تصلبت في مكانها وهي تراه قد سبقها فخرج من

باب المنزل، لاحظ اختفاء صوت خطواتهم من خلفه فالتفت إليهم بغضب:لماذا توقفتم ليس لدينا الكثير من الوقت؟!

ارتفع صوتها المتحشرج من البكاء وصاحت بغضب:أتريد مني أن أذهب وأترك أولادي هنا؟!!!

إن أردت الذهاب فلتذهب أنت وخذ أولادك معك......قالتها وهي تدفع إليه نبيلة وعصام.

ألجمت الدهشة لسانه، إنها المرة الثانية على التوالي التي تسيء فيها فهمه، أبهذه الصورة يبدو!

أهو حاد معها لهذه الدرجة!

أتراه قد انتزع قلبه من بين أضلعه، ووضع مكانه حجراً لا يشعر ولا يئن لفقدان أبنائه!

كيف لها أن تتخيل أنه يمكنه الرحيل بدونهم!

احتل الذهول قسمات وجهه، شعر أنه بحاجة للإخراج الغضب المتنامي بداخله، اقترب منها ببطء وعيناه معلقتان بدموعها التي فاضت كالسيل، اقترب حتى صار على بعد خطوتين منها وقال لها هامساً:أحقا تتحدثين؟

صمت لبرهة ثم أردف قائلاً وقد ارتفع صوته واحتل الغضب حروف كلماته:هل تعتقدين أنني سأذهب وأتركهم؟!أمن كل عقلك تتحدثين؟!

يبدو أنك فقدتِ عقلك، للمرة الأولى أشعر أنني تزوجت امرأة بلهاء.......كاد أن يكمل فقاطعته بنبرة الغضب نفسها التي تحدث بها:ولم خرجت من المنزل إذاً؟

. ألم أقل لكِ إن عقلك لم يعد يعمل بعد، لقد بحثنا عنهم في كل أرجاء المنزل دون فائدة، فلابد أنهما قد خرجا من المنزل فقررت البحث عنهما قبل أن يبتعدا.....

أطرقت برأسها أرضاً، وقد علمت مقدار خطئها، فأتاها الشعور بالخذلان يمزق أحشاءها.

وقف ينظر إليها وصدره يعلو ويهبط، لا يدري أمن الغضب هو أم التوتر أم الخوف؟

* * *

ساروا على غير هدى في المحيط الخارجي للمنزل في الطريق غير الممهد ذي الرائحة النتنة، كثيراً ما شعروا بالغثيان والرغبة في التقيؤ، لكن بطونهم كانت خاوية، الأرض تكسوها الحشائش وقليل من الأشواك، وبعض الأشجار الغريبة و الصخور المتناثرة والتي كانت تعوق سيرهم بشدة، يبحث بعينين كالصقر، وصدره يعلو ويهبط، وناقوس الخطر يضرب برجولته عرض الحائط، فقد تساوى مع زوجته في القلق وقلة الحيلة، ارتفع نداؤها الممزوج بالبكاء حتى أنه في بعض الأحيان صار غير مفهوم عزة....شيماء، همهمات صعبةَ التفسير، شعر بصعوبة الموقف عليها فطفق يساعدها في النداء دون جدوى......

عزف الحزن على أوتار قلبها البائس، وحاكت بأسىً ثوب اليأس مفصلاً على جسدها

الضعيف، فأخذت تنظر إلى عينيه مستمدة قوتها مما تبقى من قوته، نظرات الإصرار على وجدان بناتها تشعل قناديل الأمل في داخلها عازمة على عدم الاستسلام، حتى ولو ضعف الجسد، فشعرت أنها قادرة على توليف تلك الخطوات الباقيات حتى لا ينال الشوك من أطرافهم.......

تمنت لو أنها تستطيع أن تمتلك بعض القوة، فدائماً ما كان يزعجها ضعفها، وتعلم أنه يستاء منه أيضاً، ولكنها لم تنجح يوماً حتى في مجرد التظاهر بالتجلد.....

كان صمت القبور يغلف المكان، حتى قطع سكونه ذلك الصوت الذي سمعه يتردد في أذنيه من جديد "أنا القوية ممتدة الجذور، أنا البعيدة عن مرمى العين ومتاهات البحور، أنا سلاح ذو حدين، فإن أنت تمردت علي ستصبح حتماً مقتولاً، وإن أطعتني سأزين طريقك بالنور....قم وانهض فأنت في عالمي، تتحرك في لعبة وضعت أنا قواعدها وحتما سيجيءعليك الدور، عليك أن تضحي لكي أنعم، وتستسلم لكي أروي ظمئي، فعلى أي حال لن تستطيع مقاومتي، فأنا معقل الشر أدير العالم وأنا معصوبة العينين....."

نظر إليها بهول، وقد خشي أن تكون هي الأخرى قد سمعت ما سمعه، فتنفس الصعداء عندما رأها تواصل بحثها فأدرك أنها لم تسمع ولكن هل يعني ذلك أنذلك الكلام موجه إليه فقط؟!

لاحظت نظراته إليها فأشارت إليه مستفهمة فهز رأسه نافياً، كان الخوف والقلق يتمركزان في سويداء قلبه، وقد تأججت نيران الحيرة بداخله، أخفى عنها خلجات نفسه مخافة أن يفقد زمام الأمور، فمنذ اللحظة الأولى، وهو يدرك أن هذا المكان غير طبيعي، كان يشعر بشيء ما يجذبه إليه وهو منساق وراءه دون أي مقاومة.

لقد حل الظلام وهو لا يشعر، وارتفع عواء الريح، وحفيف الأشجار بدأ خفيفاً ثم أخذ في الارتفاع تدريجياً، وخزت قلوبهم فأمسك بيد عصام الذي كان يرتجف من شدة البرد والخوف، وما إن لمس أنامله حتى سرت بجسده رعشة لا يعرف سببها، تصلب في مكانه وأخذ ينظر إليه للحظات قليلة قبل أن يحتضنه بفزع ولايدري أي حضن هذا؟هل يحميه أم يحتمي به؟

خلع سترته الجلدية وألبسه إياها، وعيون حسناء تطرح ألف سؤال وسؤال، يستطيع أن يقرأهم جميعاً، ولكنه لا يملك أي إجابات، لذلك تنقل ببصره في ذلك الفضاء الواسع للهروب من نظراتها الثاقبة.

التفت بهلع عندما سمع أنين نبيلة يأتي من خلفه، فوجدها تجلس على صخرة تحتضن عمراً وقد بدا عليها التعب الشديد، فلم يكن بمقدرة الصغيرة أن تحتمل ساعات البحث الطويلة، وهي تسير على قدميها حاملة أخيها، جثى على ركبتيه بجانبها، وأمسك بذقنها وقال بحنو:هل تعبتِ؟

أومأت برأسها إيجاباً، حاول جاهداً رسم الابتسامة على شفتيه، لكنه لم ينجح كالعادة في إخفاء قلقه وهو يقول:حسناً سنستريح قليلاً...

كادت حسناء أن تنطق رافضة، فأشار إليها في حزم أن تصمت. ففعلت على مضض.

لم يكن قلقها على عزة وشيماء أكثر من قلقها على نبيلة، فلم تكن ممن يفرق بين الأبناء، بل إنها على العكس من ذلك تماماً، ولكن موقفها ما هو إلا تصديق لقولهم [أولادك صداع في الدماغ إذا كانوا حولك، وجع في القلب إذا غابوا عنك][1].

جلس مستنداً إلى إحدى الأشجار العملاقة يحتضن عمراً، وحسناء على الجانب الأيسر منه يفصلهما نبيلة وعصام، ساد الصمت إلا من أنين حسناء وصوت حفيف الأشجار، وكان الظلام قد بدأ يلف المنطقة بردائه، وقد كانت ليلة الوصل، فزاد الأمر سوءاً، ورويداً رويداً بدأت الرؤية تتلاشى على الرغم من أنهم كانوا في رواق الليل.......ظل يتفقدهم بأنامله بين الحين والآخر..

أخذ يهز رأسه يميناً ويساراً، كأنما يطرد تلك الأفكار السوداء التي قذفت في مخيلته، غير مبالية بكونه أب، ألا رحمته قليلاً من تلك السيناريوهات البشعة! يعلم أنه لا مكان للتفاؤل، وخيوط الأمل شبه منقطعة، لم يتبق منها سوى بصيص مرتبط باحتمال أن يكونوا قد ضلوا طريقهم، ذلك الاحتمال الذي يرميه لحسناء كجرعة صبر نافذة، أما هو فيعلم أنه السم بالعسل...... حاول كثيراً كبح جماح أفكاره ولكن دون فائدة..... مسح بأنامل مرتعشة تلك العبرات التي تسللت إلى وجنتيه في غفلة منه وأخذ يتحسسها بأنامله، هل يبكي حقاً!

كان يظن أن طفولته كانت آخر عهده بالبكاء عندما كان يوبخه والده أو ترفض له أمه طلباً.........هل أصبح ضعيفا إلي هذا الحد كي يبكي وهو في العقد الرابع من عمره؟هل هذه هي رجولته ومسئوليته؟

ولكن ما علاقة الرجولة بالبكاء، هل لا تبكي الرجال؟

لا قد تبكي الرجال ولم لا؟!

ولكن حينها لابد وأن تعلم جيداً أنه قد بلغ السيل الزبى، وأن العاصفة على وشك الهبوب، والدمار كله يتمركز في فوهة ذلك البركان الثائر.

انتفض بشدة ومسح عبراته بقوة، وهو يستمد قوته من صدى صوت والدته الذي يتردد صداه في عقله [الرجال لا تبكي قبل نهاية المعركة] كانت كلماتها كالسهام تخترق صلب رجولته التي دائماً ما كان حريصاً على الاحتفاظ بها في أصعب المواقف.

يحتاج إلى قبضة واحدة تحطم مرايا الخوف بداخله إلى شظايا من زجاج، وتجعلها فتاتاً.

هل يقدر على تسطير حروف القصة من جديد دون الحاجة إلى صراخ أو بكاء؟

* * *

---

(1) الأديب الراحل أنيس منصور.

أخذ يحدق بالسماء كالمجنون، وهي مفترشة بتلك الجمرات الحمراء، وتقترب من بعضها ببطء، وكلما امتزجت مجموعة منها، انفجرت وأطلقت ألسنة لهب تخلع القلوب، وما لبثت أن تختفي سريعاً.

أسرع بوضع يده على قلبه، ليحد من سرعة نبضاته، عندما تذكر نفسه وهو ملقى على أرضية تلك الغرفة الموحشة، وصوت صفير يخترق أذنيه، وصوت خطوات يقترب بنغمة رتيبة مملة، حتى احتل الهلع أوصاله وصار لا يقوى على النهوض أو مجرد الحركة، كانت الرؤية مشوشة للغاية، حاول النهوض عدة مرات بلا جدوى إلى أن نجح في المرة الأخيرة، ووقف بأرجل مرتعشة، وجسده يهتز بقوة، يشعر بعدم اتزان، ورويداً رويداً حاول أن يفتح عينيه ليحدد ماهية ذلك الشيء أبشر هو أم....أم ماذا؟

ولكن الصدمة فاقت كل توقعاته فقد فوجئ بلا شيء، لا يرى شيئاً على الإطلاق، ابتلع ريقه بصعوبة وهو يلف حول نفسه، والصوت يقترب أكثر فأكثر، شعر بنار خلف ظهره وما إن استدار حتى تلقى ضربة ببطنه، شعر حينها أن أحشاءه تتمزق، وكأنها قبضة من حديد، عادت الرؤية تتلاشى من جديد، واقترب صوت من أذنه مردداً (سآخذهم حتماً فلا تحاول) ثم أخذت قواه تتلاشى، وأوصاله تتهاوى، وارتطم جسده بالأرض بقوة، ثم أفاق علي صوت حسناء وهي تصرخ بوجه المرأة وهو لا يدري كيف عاد إلى الغرفة مرة أخرى، وقد عاد كل شيء لما كان عليه..... كانت الصدمة قد كسرت الحروف على حواف النطق وعلى غير اختيار، قرر ألا يخبرهم بشيء.

وأخيراً هدأت أنفاسه بعدما اختفت تلك الجمرات السماوية مرة أخرى، استرخى قليلاً، وأغلق عينيه لدقائق قبل أن يأتيه ذلك الصوت مرة أخرى: (سآخذهم حتماً فلاتحاول) بطريقة تلقائية امتدت يده إليهم يتفقدهم بجواره، فساوره بعض من الاطمئنان.

أصبح شبه متأكد من أنهم فارقوا الحياة، ويخشى أن يركض خلف شيء لا يمكنه إدراكه، فيفقد شيئاً ملك يديه، ولكن قلبه يأبى أن يرحل بدونهم فأصبح يعاني من صراع حاد بين قلبه وعقله، وقد وقع في أسر الصراع كفريسة مستسلمة.

* * *

ازدادت قوتها واهتزت الجدران من صوت زئيرها، لابد وأن تخرج من هنا، هو وحده قادر على مساعدتها، لابد وأن تناديه، وإلا لن يستطيع أن يكتشف مكانها، لن يكون أمر إقناعه بفك قيودها بالصعب عليها، فلديها الكثير من الحيل التي تستطيع استخدامها بحرفية عالية، تبقى العقبة الوحيدة أمامها هي كيف ستستدعيه، لقد فقدت كل صلاحيتها، فقدت كل قواتها الخارقة وفارقت عرش سيادتها منذ زمن بعيد الأمر الذي يجعلها أكثر بؤسا، لن يكون الأمر ممتعا إن

فشلت محاولتها ولكن ليس لديها خيار أخر عليها أن تجازف ولابد وأن تنجح.

* * *

استسلم للنوم فربما أراد أن يكف عن التفكير قليلاً، ولكن هيهات فلم تتركه الهواجس حتى تفصد جبينه عرقاً على الرغم من تلك العواصف والبرد القارص الذي ظل يكل إليه الضربات والصفعات على جسده كله.

* * *

تسللت خيوط الشمس إلى عينيه، لتنقذه من تلك الكوابيس التي قضت مضجعه من فرط قسوتها، فتح عينيه ببطء من شدة التعب، فرك وجهه بكفيه محاولاً الرجوع للواقع الذي لا يختلف كثيراً عن ذلك الخيال البشع.

التفت بذعر لحسناء التي هبت واقفة دون سابق إنذار وهي تلتفت حولها برعب، ظل ينظر إليها بعدم فهم وهو يراقب تحركاتها الغريبة وحالة الذعر التي طرأت عليها... ترى هل تبحث عن شيماء وعزة، فمنذ اختفائهما وقد احتلها الخوف والهلع، ولكنه يراها قد فاقت ذلك بمراحل، وحركتها تجعلها أشبه بمن فقد عقله، وهذا هو ما يخشاه، فهي تعيش على أمل عودتهم فماذا لو لم يعودوا؟!

اقترب حتى صار على بعد ثلاث خطوات منها، كاد أن ينطق فقاطعته مباغتة:أين عصام؟

تصلب الدم في عروقه وشحب لونه من جديد، وبدا وكأنه فقد القدرة على الكلام، ظلت تنظر إلى عينيه الجاحظتين بهول شديد، لم يعرف مكانه إذاً!

إنها لم تستطع أن تعثر على عزة وشيماء حتى الآن لتفقد عصام هو الآخر!

تجمعت الدموع بمقلتيها منذرة بالهطول، في حين انتفضت نبيلة من مكانها وهي تحمل عمراً فأسرعت حتى أمسكت بيد أبيها الذي نقلته الصدمة إلى عالم آخر، وقد ارتفع نحيبها وهي تنتقل ببصرها بينه وبين حسناء، التي كانت الدموع قد تجاوزت جفونها، واتخذت من وجنتيها منحدراً قبل أن تسقط لتروي عطش الأرض القاسية التي على صخورها قد تحطمت حياتهم، مازالت تجذب أباها من يده محاولة لفت انتباهه لشيء ما، وعندما يئست منه استبدلت يده بيد حسناء، فباغتها الفشل رداً قاسياً فوقفت بينهما صارخة، وقد تحشرج صوتها بالبكاء: إنه هناك....تحولت أعينهم ببطء إلى الجهة التي أشارت إليها وكأنها تعلم ما هي مقبلة عليه وترفضه بشدة، استقرت أعينهم على الجثة المعلقة بالشجرة التي كانوا يستندون عليها، جثة لم يبق فيها نقطة دماء واحدة، وكأن شيئاً ما وكل بمص دمائها بإخلاص، فم مفتوح ولسان متدل، لا لم تكن الوفاة شنقاً فالبطن كانت مفتوحة بالعرض يتدلى منها طرف قصير من الأمعاء، وقد كان آخر ما تبقى، فقد أخذت كلها ولفت بإحكام حول فروع الشجرة.

إنه الطفل ذوالأعوام الأربعة [عصام]، انتزعت منه حقوقه البشرية، ليقع في قبضة مجهولة

لتعبث بآدميته بكل وحشية، كوحشية تجار الأعضاء.

تقوست شفتاه من الألم، وأسرع عابثاً بوضع يده على أعين نبيلة، لعلها تكون حاجباً لها عن رؤية تلك الصورة التي يعلم جيداً أنها تنطبع في الأذهان من أول وهلة، شيء ما بداخله يحدثه بأنه قد رأى هذا المشهد من قبل ولكن متى؟ وكيف؟!

نظر إلى حسناء التي فاقت صدمتها صدمته، فتجمدت في مكانها كتمثال حجري، لم يرمش لها جفن وقد جفت الدموع من مقلتيها، سار إليها برفق حتى ضم رأسها على كتفه، ولم يتلق منها أي ردة فعل.

انسحب من بينهما ببطء، أمسك بساقي الجثة، وما هي سوى دقائق حتى وضعها على الأرض، أين رأى ذلك المشهد إذاً؟!!!

اتسعت عيناه من فرط دهشته، وهب واقفاً، وقد تأججت النبضات بداخله بين جلال الحزن ورغبة الانتقام.

كيف ينتقم؟ وممن؟ فمن الذي أراه مشهد موت ابنه في منامه؟!

حاول تجاهل الجثة وأسرع الخطا نحوهما، جذبها من معصم يدها، ونبيلة تلحق بهما، سار بخطوات واسعة وعيناه تشع لهيباً، يحمل في ثناياه بوادر الطوفان.

كانت تسير معه كالجثة الهامدة، كدمية يحركها كيفما شاء، فقد تحولت إلى شجرة ذبلت أوراقها وتساقطت على الشرفات ضحكاتها، شعرت بأن الأمل الذي كان يداعبها لبعض الوقت - وكانت قد تشبثت بأهدابه - أخذ يجافيها دون سابق إنذار، فلم يكن بيدها سوى استخدام ذلك السلاح الأنثوي البغيض، فانحدرت الدموع على وجنتيها كالطوفان.

لم تكن تستوعب بعد كل ماجرى، أهو ابنها حقاً أم أنها صارت تتخيله في كل وجوه الأطفال؟

إذا كان هذا مصير عصام وهو يجلس بينهما، فكيف عزة وشيماء؟

صعقت لهذا الخاطر، وكأنها أصبحت الآن فقط ترجو ألا يكون مصيرهما أبشع من مصير عصام.

*   *   *

دلف إلى المنزل بدون استئذان، تفقد جميع الغرف فلم يجد أحداً، وقف في منتصف البهو وهو يصرخ بصوت تردد صداه عالياً، ولكن دون فائدة فلا أحد يجيب، حاول كبح جماح غضبه قدر الإمكان، فهو لا يريد أن يجعل شيئاً يعكر صفو تفكيره لعله يستطيع أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ارتفع صوت عال في المكان دوى كدوي النحل، ثم طفق يزداد ويعلو، التفت الجميع حولهم بهلع، كانوا يشعرون أن المكان يضيق بهم، كادوا يختنقون فسحبها من يدها مجدداً، ومازالت حالة الصمت الرهيب تسيطر عليها، صاروا في الطابق العلوي وسلكوا الممر الأيسر، لا

يعلم لماذا أتى إلى هذا المكان!

شيء ما يجذبه إليه، فاتبع إحساسه بدون أي اعتراض، لعله يجد ضالته هنا في هذا المكان، في تلك الغرفة التي لم يفلح ضوء النهار في التسلل إليها، حاول فتح الباب مسدداً إليه عدة ركلات بكتفه تارة وبقدمه تارة أخرى، وقف ينظر واضعاً يده حول خصره، وهو يلهث وصدره يعلو ويهبط بسرعة جنونية، متفرساً تدور نظراته يبحث عن شيء ما، أي شيء يمكن أن يهديه، شيء يشبه وجم الصحارى، لم يكن متأكداً إن كانت تلك الغرفة ذات أهمية، فربما كان الوقوف عندها مضيعة للوقت ليس إلا، ولكن عليه أن يطرق كل الأبواب، ويضع كل الاحتمالات نصب عينيه.

في بداية الأمر لم يكن يرغب في الكثير، فقط كان يريد النجاة بأهله، ولكن الآن زادت مهماته، فلا يمكن أن ينعم بسلام إلا بعدما ينتقم من أولئك الذين قضوا على ابنه بكل وحشية، كان يؤمن دائماً أن العقاب كي يكون رادعاً لابد وأن يكون من جنس العمل، ولكن هل يستطيع أن يعاملهم بالطريقة نفسها؟

هل يستطيع أن يتحول إلى إنسان شرس أو سبع فتاك؟

ولم لا؟

فالقطة تبدو حيواناً أليفاً مسالماً، تفر هاربة عند الخطر، ولكن عندما يتعلق الأمر بأبنائها تتحول بدون تردد إلى حيوان شرس، لا يستطيع أحد مواجهته، يشعر بأنه لديه من الدوافع ما يكفي لينتصر في تلك المعركة، فلم تعد آدميته تعني له شيئاً أمام تلك الصورة التي علقت بذهنه بشكل أبدي.

ظل ينظر للباب وهو يضع يده على قلبه محاولاً السيطرة على أنفاسه المتلاحقة، إلى أن وقع بصره على زر أزرق صغير بالكاد يرى فوق إطار الباب، لم يحتج منه ذلك جهداً كبيراً لكي يضغط عليه، صدر صوت قرقعة بسيطة من مقبض الباب، ففتح بعدها مباشرة، مصدراً صريراً عالياً، نظر إلى حسناء بانتصار، فوجدها تائهة في ملكوتها، يتفهم جيداً ما تمر به الآن، ولا يمكنه الضغط عليها أكثر من ذلك، فأمسك يدها بحنو، وأشار لنبيلة أن تتبعهم، دلفوا إلى الغرفة بحذر، ربما لو لم يكن ما رآه حتى الآن كفيل بأن يجعله مستعداً لرؤية أي شيء، لكانت الدهشة هي سيدة الموقف الآن.

وجد نفسه أمام ثلاثة أبواب مغلقة، الأول أحمر اللون، والآخر باللون الأزرق، والأخير بلون أصفر يميل للاحمرار قليلاً.

حسم أمره وتوجه ناحية الباب الأحمر، وهو لايزال يمسك بيدها، وما إن فتح الباب حتى خرج منه ضوء أحمر قوي ودخان كثيف شوش الرؤية لديهم لدقائق قليلة، انتظروا حتى هدأ ثم امتدت أقدامهم داخل الممر الذي ظهر خلف الباب، كان الممر ضيقاً للغاية، لا يسع سوى

شخص واحد، سار هو في المقدمة تتبعه حسناء ثم نبيلة، وما إن وضعت نبيلة قدميها داخله، حتى أغلق الباب خلفها، حاولت فتحه دون جدوى، فنظرت إلى أبيها بتساؤل فأشار إليها أن تتبعه.....كانت حسناء تسير بينهم بدفعات نبيلة وأحمد لا تفقه شيئاً مما يدور حولها.

الممر يكسوه شبكات عنكبوتية وبعض الحشرات الصغيرة، والتي أثارت خوف نبيلة، ولكنها لم تستطع البوح بذلك.

أصبح ذلك ضوءاً مجهول المصدر خافتاً بالكاد يجعل الرؤية شبه واضحة، والسقف غير منتظم، ففي بعض الأحيان ينخفض فيضطرون إلى الانحناء، كان هناك بعض التصدعات في الجدران، مما يدل على قدمها، ظل الممر مستقيماً حتى قابلهم انحناء لليسار بعدما قضوا وقتاً طويلاً في السير فيه، انحدروا معه وتبدلت الإضاءة للون الأزرق، تعالت صرخات نبيلة وحسناء عندما ظهرت أمامهم رأس مقطوعة تتدلى من السقف ملطخة بالدماء، استطاع التعرف عليها على الرغم من أن الدماء قد أخفت ملامحها، لم يتخيل يوماً أن يحمل رأس ابنته بين يديه هكذا، لم يكن في حسبانه أن الطفلة ذات الأعوام الأربعة، التي كان يحمل جسدها النحيل بين يديه، ويقذفه في الهواء، سيستبدله برأسها المقطوعة....عز في نفسه أن يتركها في ذلك المكان، ولكنه لا يستطيع أن يضغط على جراح حسناء بتلك القسوة، عليه أن يحافظ على ما تبقى من أسرته التي أصبحت مقطعة الأوصال.

ووضع الرأس على الأرض بتردد، فما زال قلبه يجذبه إليها، ولكن يدي حسناء التي وضعتها فوق أعينها كي لا تنظر إليها، كانت أقوى من كل إغراءات قلبه البائس، عليه أن يضحي كي لا تتأذى روحها......تابعوا سيرهم وهو يختلس النظرات إليها بين الحين والآخر إلى أن اختفت عن نظره.

وصل إلى آخر الممر فوجدوا أمامهم باباً خشبياً، تردد قليلاً قبل أن يفتحه، زفر بضيق عندما اكتشف أن الممرين متصلان ببعضهما، فقد عادوا إلى الغرفة نفسها من جديد.

لم يبق سوى الباب الأخير، اقترب منه بتوجس، ووضع يده على المقبض، بدت أطرافه تعمل بآلية..حدث مثلما حدث في المرة الماضية، فقد أغلق الباب خلفهم، ولكن أحداً لم يحاول فتحه هذه المرة، كان الممر أوسع من سابقه مع تلك الإضاءة الحمراء التي تثير الرهبة في النفوس، ظل يزدرد ريقه بصعوبة بين الحين والآخر، وقد كست حبيبات العرق وجوههم، وكلما توغلوا للداخل أصبح التنفس أصعب، كان الممر خالياً إلا من خيوط العنكبوت، التي نسجت بمهارة فائقة، ولم تلتفت إليها حسناء على الرغم أنها دائماً كانت تستمتع برؤية تلك الأشياء، يثق تماماً من أنها لو لم تكن بحالتها هذه، لما تركت الفرصة تمر من بين يديها هكذا، ولأطلقت لديها العنان لنقل تلك الصورة إلى لوحة فنية ساحرة.

كان هناك بعض الحصى المتناثرة على مسافات متباعدة، توقف قليلاً عند الدرج الحجري

الذي ظهر أمامهم، لا يعلم لماذا يراوده إحساس بأنه ظهر فجأة!

يكاد يجزم بأنه لم يكن موجوداً منذ دقيقة واحدة..أسرع الخطا عندما أتاه صوت صرخات مكتومة، حاول فتح الباب الذي مثل أمامهم بعدما اجتازوا السلم، ولكنه كان موصداً بقوة، أخذ يسترق السمع إلى تلك الهمهمات التي تأتي من خلف الباب، ولكن محاولته باءت بالفشل فلم يستطع أن يفهم شيئاً.

كانت نبيلة تسارع في إخفاء عبرات الخوف التي تسيل على وجنتيها.....وأخيراً فتح الباب بعدما أنهكت قواه، كانت الغرفة غارقة في الظلام، لذلك توقف قليلاً فعلى الرغم من أنها مازالت همهمات غير مفهومة، إلا أن الصوت أصبح أقرب إليه......صرخات وأنين وكأن أحدهم يترجاه، ربما يكون هناك شخص ما محبوساً في تلك الغرفة، ولكنه لا يعلم أصديق هو أم عدو؟

على كل الأحوال لا يمكنه الثقة بأحد على الإطلاق.

شعاع نور ينبثق من العدم، يتسلط على ذلك الجسد المكوم على الأرض، كانت منكمشة في نفسها، وشعرها الرمادي الطويل يغطي وجهها، جثا على ركبتيه بجوارها، وهو يتطلع إلى تلك الأغلال والقيود التي تشبثت بقوة بذلك الجسد النحيل، توجهت نظراته الحائرة إلى ذلك الشعر الرمادي، الذي لا يعلم ما الذي يخفيه، تلقائياً وجد يده تستقر على كتفها، فرفعت رأسها المطرقة أرضاً، ليفزعه ذلك الشعاع الخارج من تلك الأعين الزرقاء التي تحدق به بطريقة تقطعت لها أوصاله..سرت بجسده رعشة قوية، وكأنه صعق بماس كهربائي، ثم ما لبث أن استعاد نفسه من جديد، هب واقفاً وعيناها مازالت تحدقان به، وهو يحاول تفادي النظر إليها، لا يعلم معنى ذلك الإحساس الذي يمتلكه عندما ينظر إليها!

بثقة وثبات زائف قال:من أنت؟

ازداد الأمر سوءاً مع ظهور تلك الابتسامة المخيفة على شفتيها العريضتين، وهي تهمس: بل من أنتم؟

ساد الصمت للحظات، ومازالت حسناء تقف متصلبة، ونبيلة منكمشة وراءها إلى أن قطع أحمد الصمت هاتفاً بتلعثم:أنا من يسأل الآن.

تعالت ضحكاتها فزادته استفزازاً، ونظر إليها بحنق قبل أن تجيب بسخرية:حسناً سأجيبك إذاً.....صمتت قليلاً ثم أردفت قائلة:أنا أعلم كل شيء عن هذا المكان وعن ساكنيه....زوى ما بين حاجبيه، وهز رأسه مشيراً لها أن تكمل وهو يقول: وماذا تعلمين؟

.أعلم أن هذا المكان ليس كأي مكان آخر، وهؤلاء ليسوا أناساً عاديين، أنا أعلم كل شيء عن معقل الشر معصوبة العينين إنها ممتدة الجذور ولا احد يستطيع مقاومتها، أنا فقط......صمتت لبرهة ثم أردفت:أنا فقط من يستطيع القضاء عليهم.

شرد للحظات وهو يستعيد تلك الكلمات العالقة بذهنه:

"أنا القوية ممتدة الجذور أنا البعيدة عن مرمى العين ومتاهات البحور، أنا سلاح ذو حدين، فإن أنت تمردت علي، ستصبح حتماً مقتولاً، وإن أطعتني سأزين طريقك بالنور...

قم وانهض فأنت في عالمي، تتحرك في لعبة وضعت أنا قواعدها، وحتما سيجيء عليك الدور......عليك أن تضحي كي أنعم، وتستسلم كي أروي ظمئي، ففي كل الأحوال لن تستطيع مقاومتي، فأنا معقل الشر أدير العالم وأنا معصوبة العينين... "

ترى هل تملك تفسيراً لذلك ؟أم أن عقله يقذف به وراء خيالات واهية.

وقف ينظر إليها منتظراً أن تكمل كلامها، فوجدها تنظر إليه في صمت وهو يقول في همس:ماذا تقصدين؟

كانت واثقة من أنه قد سمع النداء ولم يستطع فهمه، وعليها أن تضع الحقيقة بين يديه حتى تستطيع أن تكسب ثقته....ابتسمت بمكر وهي تتمتم:هل سمعت النداء؟

.أي نداء؟

تلت عليه ذلك النداء الغريب بصوت أشبه بفحيح الأفعى، فاتسعت عيناه من فرط دهشته......لم تستطع أن تمنع نفسها من رسم تلك الابتسامة الخبيثة على جانب شفتيها، ولكن صدمته ساعدتها في حجبها عنه، ساد الصمت طويلاً لم يقطعه سوى صوت نبضات قلبه الحائر، وعيناه شاخصتان في أفق مجهول........توخز قلبه عندما أشارت برأسها إلى نبيلة وعمرو وهي تقول:سيأخذونهم.....حتماً سيأخذونهم إذا أرادوا لن يستطيع أحد ردعهم.

كان قلبه على أعتاب ضلوعه، يطرقها بقوة كي يقذف من بينها، أطلقت عيناه نظرات الترجي.... نعم يرجوها أن تقف بجواره، تساعده في إنقاذهم، لم يعد يملك غيرهم في هذه الحياة، وقد فقد معظمهم، ولم يعد لديه حل سوى أن ينقذ ما تبقى منهم، وإلا ستصبح حياته هي الجحيم ذاته.....يعلم أن قلبه قد كسر، ولا سبيل إلى إعادته إلى ما كان عليه، ولكنه لا يريد جبر ما انكسر بداخله، وإنما يسعى إلى أن يكونوا آمنين في مثواهم الأخير، يريد أن يقابلهم في أحلامه دون أن ينكس رأسه أمامهم، لا يريد لنظراتهم أن تخترق جسده كالسهام المسمومة، بل لا يريد أن تظل أفكاره تلاحقه لتذكره بتقصيره معهم، دائماً ما كان لديه قاعدة ثابتة في حياته (لا تنظر خلفك فتضع العقبات أمامك، ألق نظرة بريئة على ماضيك، وامح ذكراه السيئة من لوحة مستقبلك) وها هو يفعل، يعلم أن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد، فستظل ذكراهم مرضاً يمزق أحشاءه، ولا يريد أن يجعل رغبة الانتقام عالقة بروحه كالسيف يجتز رقبته.

تمتم بكلمات غير مفهومة، فأدركت مدى ارتباكه وتوتره، أطرقت برأسها أرضاً وهي تقول بخبث: إلا أنا...أعني أنه لا أحد يمكنه مساعدتك غيري.

جذبت كلماتها انتباهه، فأصغى إليها بكل جوارحه، ولكن سرعان ما أخذ النور بداخله يترنح، فابتسم بسخرية مزجت بالمرارة:وما المقابل إذاً؟

علمت أن لحظات الجد قد حانت، فكل ما مضى لم يكن سوى تسلية وتمهيد لما هو آت.

.لا أريد منك سوى أن تفك قيودي، فلا أحد غيرك يستطيع فكها، وهذا لمصلحتك أيضاً، فلا يمكنني مساعدتك وأنا مكبلة هكذا.

*   *   *

سار خلفها معصوب العينين بعقل غائب وقلب يتمزق، شيء ما بداخله يجبره على السير وراءها، وشيء آخر يوبخه بشدة، ويذكره بأن العقل هو سلاحه القوي، الذي لا يمكنه أن يتخلى عنه، ليقلل حجم الخسائر، ربما لم يثق بها ثقة كاملة، لكنه مرغم على اتباعها، مع أن كلامها لا يبدو له منطقياً على الإطلاق، فكيف يعقل أن يكون المسن والعجوز يعبدان شجرة وحشية مفترسة، تسقي بالدماء البشرية كل عدة سنوات كي ترضى عنهما!

دائماً ما يلتهم الشر طموحات البشر وآمالهم، وها هو يروي ظمأه بدمائهم غير مبالٍ بأرواحٍ تزهق، وقلوب يقطع وتينها بأفعاله الحمقاء، هو لا يريد سوى قلوب بلا نوافذ وأرواح غير مكبلة بحقد دفين، ولكنه اليوم قد وقع تحت وطأة الشر والمعتقدات الوهمية!.......فهل يستطيع أن يثأر في هذه المعركة أم يقف على فوهة بركان الانتقام ويحلم بثورته فقط؟

نظرات شرسة تتطاير من عينيه، فقد عرف الآن مهمته، ولا سبيل سوى قتلهم.....ولم لا؟ فهل كان ما فعلوه به هيناً؟!

بالتأكيد يرى أنهم يستحقون القتل بكل وحشية، وسيحرص على ذلك، سيحارب بكل ما أوتي من قوة للقضاء عليهم، لا يستطيع أن ينكر أن قلبه ظل يدفعه بقوة للانسياق وراء تلك المرأة غريبة الأطوار والخلقة أيضاً، فقد تهللت أساريره عندما أوضحت له أنه لن يصبح بأمان إلا عندما يتخلص منهم بشكل أبدي.

في الحقيقة كان متعطشاً إلى أن يذيقهم العذاب ألواناً، ولكنه كان بحاجة إلى أحد يترجم له رغبته تلك، إلى كلمات تظل عالقة بذهنه تحثه على الانطلاق كسهم صائب وراء هدفه.

نعم فلن يبرح هذا المكان حتى يشفى غليله وتهدأ نيران غضبه.

"لن تستطيع أن تنعم بالأمان أنت وأسرتك إلا عندما يهلكوا، فقد وقع الاختيار عليكم، ولن تستطيعوا مغادرة هذا المكان قبل أن يستكملا كل الطقوس اللازمة، كي لا تغضب عليهما الشجرة فتذيقهما الويل "

إذاً فهو أسيرهما لآن، ولا يمكنه أن يظل في الأسر كثيراً، لذا فعليه المخاطرة والسير وراءها.

تعمد أن لا ينظر إلى حسناء كثيراً، فصمتها الدائم لا يزيده إلا ضعفاً، يكاد يسمع صوت دقات قلبها، تخبره بأنه لا فائدة من كل ما يفعله بعدما فقد أبناءه.

عادوا للبحث عنهم في كل أرجاء المنزل دون فائدة، رأى مخابئ كثيرة لم يرها أثناء بحثه السابق، للحظات خطر بباله أن أولاده ربما كانوا في أحد هذه المخابئ، ولم يستطع العثور عليهم....أتعبه ذلك الخاطر كثيراً، ولكن سرعان ما استطاع السيطرة على تلك الدموع التي ملأت مقلتيه.

كانت غريبة الأطوار، تدهشه بلهفتها غير العادية، وكأن الأمر يتعلق بحياتها، وهناك سؤال لم يبرح ذهنه: ترى لماذا تساعده بهذا الشكل؟

ابتسمت بمكر وهي تستمع إلى كلماته:قلتِ إنه كان هناك الكثير من الضحايا قبلنا فلم لم تساعديهم؟!

هتفت بغضب مصطنع: لا أستطيع مواجهتهم بمفردي، وعندما حاولت عوقبت بحبسي وتكبيلي كما رأيت حين وجدتني.

كره أن يفيض عليها بسيل الأسئلة المحتشد في حلقه، فحتماً ستأتي إليه فرصة أخرى ليطرحها عليها، فلينتظر حتى تقضي مهمته وينـ...

وفجأة هبت نيران من العدم، فأحاطت دائرة النار بهم من كل جانب، حاولوا الخروج منها، ولكنها كبرت بسرعة هائلة، حتى كادت لتبتلع السقف بلهيبها.

ارتفعت أصوات ضحكات صاخبة تدوي في المكان، لم يكن أمامه الكثير من الوقت، ليندهش عندما نفخت في النار عدة مرات، فاختفت وكأنها لم تكن موجودة من الأساس، ليحل محلها ظلام دامس تظهر فيه أشباح وتختفي بسرعة البرق، لا يعلم منذ متى حل الظلام، فقد خيم الظلام فجأة، فلم يعد هناك سوى ضوء خافت، شعور جماعي بشيء يكبل أقدامهم، وقد باءت كل محاولات التخلص منه بالفشل، أخرجت المرأة عصا سوداء من جيبها، ورسمت نصف دائرة حولهم، ثم أعطته إياها ليرسم النصف الآخر، وبمجرد أن انتهى ارتفعت قليلاً تلك الدائرة التي رسموها عن مستوى الأرض لتنفك قيودهم.

خرجوا من المنزل، فأخذوا يقطعون الأرض ذهاباً وإياباً بحثاً عن المسن والعجوز، صرخات مربعة تشق الصمت المخيف، الذي غرق فيه المكان، فازدادت الرهبة في نفوسهم، وقفوا قليلاً يلتقطوا أنفاسهم بعدما أنهكهم الجري، شعروا بشيء يدغدغ أقدامهم وكأن ينبوعاً من الماء انفجر من تحتهم، تنقل ببصره بينهم، فأبصر أثر ما يشعر به جلياً على وجوههم، حول نظره عند قدميه، فإذا بدماء طازجة غمرت سيقانهم، هم بالركض قبل أن ينتبه إلى أنها غطت الأرض مد البصر، فوقف مكانه بيأس، ثم نظر في بركة الدماء بتفرس، فإذا بعيون تطفو على السطح تحدق به وكأنها أرادت مواساته، يكاد يسمع صوتها تهتف:لم يكن أولادك هم الضحية الوحيدة، لكنه لا يدري هل أرادوا حثه على الثأر لدمائهم، أم أنهم أرادوا أن يفقد الأمل الذي تشبث بأهدابه.

انتبه لهمهمتها وهي تتحدث إلى الدماء بلغة كالكهانة، زفر بضيق: ماذا تفعل تلك المجنونة؟!!!

أراد أن يصرخ في وجهها لتنهي هذا الهراء الذي تفعله، لكنه سرعان ما تراجع عندما رأى الأرض تبتلع الدماء وكأن شيئاً لم يكن.

كانت هرولتهم تشي إليك بأن شياطين الأرض تطاردهم، وحوش تطاردهم مطلقة ألسنة

اللهب من فمها، وعيونها الحمراء تلاحقهم كسهام نافذة، متخذة منهم هدفاً لا يمكن الحياد عنه، كان يهرول دون أن ينظر إلى الوراء، إلى أن شعر أن أصواتهم قد اختفت، فنظر خلفه وهو مازال يركض فلم يجد شيئاً.

أصبح الأمر أكثر تعقيداً!! هل يئست تلك الوحوش من النيل منهم أم أنها كانت تلاحقهم من أجل إخافتهم فقط؟!

* * *

كانوا قد تعبوا من الجري، عندما جلسوا قليلاً ليستريحوا، لم يستطع أن يغض الطرف عن تلك المرأة، فمع تقدمها في السن إلا أنها كانت أقلهم تعباً، بل إنه لم يلحظ عليها أمارات التعب!

.والآن؟

خرجت عبارته جافة، لتفضح نفاد صبره، وقلة حيلته، ومدى قسوة الموقف عليه.

.لن أرحل دون الثأر لهم، ومعاقبة هؤلاء المجرمين ولا يهمني من هم.

ألجمت الصدمة لسانه، وهو ينظر إلى ذلك الإصرار الذي ينطق به كل حرف من حروفها، للحظات خيل إليه أنه سيفقدها هي الأخرى، وها هي موجودة في عالمه، لا يهم إن كان عالماً مخيفاً، ولكنها موجودة!..التحدي والإصرار الذي تجلى في نظراتها يبوح له بأنها تغلبت على ضعفها، تنهد بارتياح.....لم يكن ذلك غريباً بالنسبة إلى أنها امرأة وأم، فالمرأة تمتلك أضعاف قوة الرجل عند الأزمات، لكن من رحمة الله بها أن من عليها بنعمة البكاء، والموقف الآن لا يحتاج إلى بكاء، أو ربما لم يحن وقته بعد، فعليهم بالثبات والصمود، وإلا فلن يستطيعوا التخلص من تبعات هذه المأساة إلى آخر الدهر.

لم يكن هو الوحيد من أسعده موقفها، بل كانت المرأة غريبة الأطوار أكثر سعادة بذلك القرار الذي يصب في مصلحتها بالتأكيد، فخرجت كلماتها متهللة في فرح لم تستطع إخفاءه:إذاً فعلينا المتابعة ولابد أن نتخلص منهما في أقصى سرعة....

* * *

نظر لها بشك ثم صمت ولم يعقب، أرهقه التفكير، وازداد ألمه وهو ينظر إلى جفون زوجته النائمة، وقد بلغ الحزن والألم منها منتهاه، تذكر ما قالته بالأمس، فأراد أن يبتسم تعبيراً عن سروره بموقفها، لكن الحزن لم يترك له مجالاً، فقد احتل كل خلجة من خلجاته.

ازداد خفقان قلبه كلما نظر إلى حسناء ونبيلة وعمرو، فهم كل ما تبقى من ثروته، نعم فقد كانوا ثروته الحقيقية، النجوم اللامعة في سمائه، والنور الذي يضيء طريق الوحدة الذي سار فيه بعد زواج أخته وموت أبويه، هم قمر ليله وشمس نهاره، يخشى أن يفقدهم هم أيضاً، فيسقط فريسة شهية تحت أنياب الحنين والحرمان.....

.لابد وأن نتحرك الآن.

نهض من مكانه فزعاً من جملتها التي أثارت غضبه، كيف لها أن تحركه كيفما شاءت، ومتى شاءت، ولم يكن ذلك فقط، بل لما أحدثه صوتها من فزع لزوجته وابنته، ألم يكن لديها طريقة أخرى للحديث!!!

منذ اللحظة الأولى وهو يلاحظ طريقتها الفظة، ولا يدري إن كان يمكنه تحملها أكثر من ذلك.... انطفأ غضبه، وتدلى فكه، وبدت أمارات البلاهة على وجهه، عندما أبصر حسناء تستجيب لها دون أدنى اعتراض......فهو يعلم طبعها جيداً؛ عنيدة جداً ولا تقبل تسلط أحد عليها، حتى إنها لا تتبعه إلا بعد أن يبذل معها جهداً كبيراً لإقناعها!!!

* * *

كانوا قد اقتربوا من الملحق الخاص بالمنزل، وقد قالت لهم أن المسن والعجوز متواجدان فيه الآن، حيث (شجرة الدماء)، وأنه لابد من القضاء عليهما قبل أن تتنبه الشجرة بتحركهم، لأنها لن تسمح لأي أحد أن يمسهما بسوء!

لم يكن مقتنعاً تماماً بتلك القصة التي تبدو كضرب من الخيال، ولكن كيف له أن لا يصدق؟! فاقتناعه أو عدمه لا يعني شيئاً أمام ذلك الواقع الذي انخرط فيه رغماً عنه، فأحياناً نضطر إلى تقبل صفعات الحياة، وكأنها قبلات تداعبنا بها، وما يكون ذلك إلا حيلة لرد الصفعة!

ابتسم ساخراً وهل كل ما حدث حتى الآن منطقياً ليقف على هذا....

لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي دعاه لتصديقها، بل لأن كل ما قالته حتى الآن يحدث دون أي تحريف.

كانوا يمتثلون لأوامرها وينفذونها بدقة عالية، كما لو كانت قائدا عسكريا، لا يهم أن كانت هذه الأوامر تبعث أحيانا علي الضحك وتظهرهم في مظهر غير لائق بمكانتهم بل الأهم أنها تجنبهم كل مأذق دون أن تسبب لهم أي خسائر!

عقد حاجبيه بضيق، وهو ينظر إلى ذلك السور الشاهق الذي يحيط بالملحق، هتف بعصبية فشل في إخفائها:ما هذا الهراء؟!!!

كيف يمكننا أن نتجاوز ذلك السور الشاهق، ولا أجنحة لنا! أتمنى ألا تكوني تعتقدين أننا ننتمي إلى قوات الصاعقة وسنتسلقه بالحبال!

قطعاً لم يكن يمزح، لكن غضبه هو الذي دعاه للحديث بمثل هذه السخرية، ومع ذلك فإن المرأة لم تحرك ساكناً، بل ظلت تواصل العبث بشعرها لترفعه على شكل ذيل حصان، وهي ترمقه بنظرة مكتظة بالغيظ، تكره من يكثر الأسئلة، تريد من الجميع تنفيذ كلامها دون نقاش، ولا يهم أبداً إن كان ذلك على سبيل الثقة أو الخوف، ولو لم تكن في حاجة إليه، لما ترددت في تحطيم رأسه، وقطع لسانه الذي دائماً ما يثير استفزازها.

كظمت غيظها، وأشاحت بوجهها عنه وقالت ببرود لا يتناسب مع نيران الغضب المشتعلة بداخلها:لن نقترب من السور الآن، لكنه سينخفض في خلال الساعات القادمة.....صمتت لبرهة

ثم أردفت: وأنا أعلم كيف سنجتازه حينها، وعندئذ تستطيعون القضاء عليهما.

.ألن تأتي معنا؟!!!

سبقته حسناء هذه المرة، فهز رأسه موافقاً لسؤالها...

.بلى، سأكون برفقتكم بالطبع، ولكني قلت لكم من قبل أنني لا أستطيع الاقتراب منهما، ومن غير سؤال عن السبب!

كانت لهجتها قاطعة، فاكتفوا بنظرات الحيرة فقط، ثم حل الصمت ضيفاً مرحباً به...

مرت سويعات قليلة كانت كالدهر، حتى همت بالقيام، فقاموا وراءها وشغف الانتقام يسيطر عليهم.... شعر برهبة في نفسه وهو يقف بجانب السور الذي لم ينخفض كثيراً كما توقع، بل كأن السور لم ينخفض أصلاً، لولا أنه كان يراقبه، كانت تمسك بعصا ليست طويلة وحبل قوي، اتكأت على العصا ثم قفزت عالياً، فلم ترها إلا واقفة على السور برشاقة لا تتناسب مع تلك التجاعيد التي ملأت خلقتها، أثر الذهول عليهم فتسمروا في أماكنهم، مدت إليهم طرف الحبل الذي كان بيدها وصاحت فيهم بغضب مكتوم، فأمسكت نبيلة بطرف الحبل بعد أن أعطت عمراً لوالدها، وما هي إلا ثوان معدودة حتى صارت بجوارها، ثم صعدت حسناء بالطريقة نفسها، وأحمد يحتضن عمراً بذراعه، ويقبض على الحبل باليد الأخرى، اكتمل الفريق أعلى السور، ثم نزلوا بالطريقة نفسها إلى الجهة الأخرى، فأصبحوا داخل الملحق، كان المكان أوسع مما تخيلوا بكثير، وبه عدد كبير من الأشجار ذات الجذوع الرفيعة، وبعضها لا أوراق لها!

كان قد علم منها أن الملحق متصل بالمنزل، وبه منفذ كان سيوفر عليهم الكثير من الجهد والوقت إن سلكوه، لكنه كان أشد خطراً عليهم، وربما كانت نسبة نجاتهم معدومة.

كانت تتقدمهم بينما كان هو في الخلف كحماية لهم، ساروا بحذر بين الأشجار والنباتات الغريبة، لم ير مثلها من قبل، لكنه لم يتوقف عند غرابتها، فلم يكن له أدنى خبرة بذلك!

أصابهم بعض الملل والفتور، وقد مضى وقت كبير ولم يعثروا عليهما، وقد تجنب سؤالها عندما رآها تصب جُل تركيزها في البحث عنهم، توقف فجأة عندما استوقفتهم بيدها، مشط ببصره الجهة التي كانت تنظر إليها فأصاب هدفه، كاد الدم أن يغلي في رأسه.

تُراه الآن قادراً على تحطيم كل العقبات للوصول إليهما، لم يعد يبالي بآلامه بل أصبح يمتلك طاقة، لم يكن يعلم هو نفسه أنها بداخله.

لم يتوقفوا مع كل محاولتها، ولا عتب عليها فهي لا تعلم معنى ألم فقدان الأبناء، لا تعلم كيف لشخص أن يفقد نور عينيه ليستبدله بنار الشوق وقسوة الحرمان، لا تعلم كيف تضمد الجروح بالكي، فاللحظة كانوا فقط يتمنون أن يروا جثث أبنائهم، كان هذا أقصى طموحاتهم، فرأوا أشلاءهم! تقدما نحوهما بخطوات ثابتة، ونظرات خاوية لا حياة فيها، نعم إنه قلب أب وأم ذهبت كل أحلامهما هباءً، بينما كانت أمارات الذهول والشتات تتجلى على صفحة وجه المسن والعجوز، وغريبة الأطوار تقف برفقة نبيلة وعمرو تتابع الموقف من بعيد، وهي لا تنسى أن تنهال عليهما بالسباب بداخلها بعد أن خالفا أوامرها، فهي لا تريد أن تخسر مرة أخرى.

صار في مواجهة المسن حتى أصبح على بعد خطوة واحدة منه، وبقبضة قوية كالمطرقة وجه إليه عدة ضربات حطمت أنفه، فسالت الدماء منها مصبوغة باللون الأسود، كانت صور جثث أولاده الممزقة تمر أمام عينيه فتزيد الضربات قوة، ضربة تلو الأخرى دون توقف، وكان صوت ما

بداخله يحثه على استكمال تحطيم تلك الرأس الملعونة، حتى يثأر لأولاده الذين كانوا قطعة منه.

لم تأخذه بالمسن شفقة ولم تتحرك بداخله الرحمة!

وهل تحركت الرحمة في المسن لحظة قتل الصغار الذين لا ذنب لهم؟!

فقد ضرب بالعقل والدين والإنسانية عرض الحائط.....ولا تليق الرأفة بموقف القصاص، ولكن عليك أن تتذكر جناية المجرم فلا تشفق عليه.

التقطت حسناء عصا غليظة من الأرض وانهالت عليها ضرباً.

خطأ كبير أن تستهين بقوة المرأة يوماً، فهدوؤها وضعفها ما هو إلا ساعة تسبق الإعصار الذي لا يدع شيئاً في طريقه.

لقد فارقا الحياة ولكن ظمأ الأبوين لم يروَ بعد، تطايرت الدماء على وجهه، فلم يعبأ بها، لم يتوقفا إلا بعدما تسارعت نبضات قلبيهما، فأخذا يلهثان دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، فبصر كل منهما منصب على الجثة التي أسقطها، استدارا إلى الخلف وقد ساورهما بعض الارتياح الذي لم يدم طويلاً!

سبحا بأعينهما بحثاً عن نبيلة وعمرو، أين ذهبا؟!

لقد تركاهما برفقة تلك المرأة الغريبة.... ركضا في مختلف الاتجاهات، وهما يصرخان بأعلى صوت دون إجابة، توقفا قليلاً يسترقان السمع إلى ذلك الصوت البعيد، صوت مألوف جداً بالنسبة لهما، لم يستغرقا وقتاً طويلاً في التعرف عليه، ركضا مرة أخرى في اتجاه الصوت، ثم توقفا قليلاً، واختفى أحمد خلف شجرة، ثم عاد حاملاً عمراً بين يديه، التقطته منه بلهفة القطة على أولادها، وأخذت تحتضنه بشدة، حتى ظن أن الصغير سيهلك من شدة ضمها له، فحاول أن يخفف وطأتها قليلاً، فرفعت رأسها بعينين دامعتين:أين نبيلة؟

لم يكن سؤالها مباغتاً له هذه المرة، فشيء ما بداخله يصرخ بالسؤال نفسه، فلم يملك سوى أن يشير برأسه بلا علم ثم أردف:

ولكن علينا أن نعثر عليها في أقرب وقت.

لم تكن لتلومه على شيء، فهي ترى كيف أن الأمور قد خرجت من قبضة يده، لم يبحثا كثيراً، حتى وجدا قطعة من ثوبها معلقاً بإحدى الأشجار.

*   *   *

عادوا يجرون أذيال الهزيمة بعقول شاردة وقلوب مزقها الفراق ولوعة الحرمان، هم فلذات أكبادهم، قطع مستأصلة منهم سهروا علي رعايتهم منذ نعومة أظافرهم فكيف لهما من نسيان واعتياد العيش بدونهم؟!

أزفت ساعة الفراق فودعوا أجسادهم، ولم يودعوا أرواحهم، وداعاً بلا وداع.

*   *   *

استقل أحمد وحسناء سيارة العودة بعد مسافة طويلة، قطعاها سيراً بخطوات أشبه بالسلحفاة.

كلاً منهما يضع رأسه على النافذة التي بجواره.. تحتضن صغيرها والدموع تنهمر على وجنتيها، أما هو لم تدمع عيناه، لكن قلبه لم يتوقف عن البكاء لحظة واحدة.......

رجع بذاكرته رغماً عنه إلى الأحداث التي عصفت به منذ ساعات، ارتجف حينما تذكر أنه كان كدمية يلعبون بها، فلام نفسه كثيراً، ولكن كيف وقد تم استدعاؤه وهو مسلوب الإرادة؟!

ولم يكن استدعاءً عادياً، ولكنه استدعاء شيطاني دمر صفو حياته، وعبث بها دون سابق إنذار، لم يجد مفراً من عتاب لا يجدي، فكيف له أن يثق بامرأة غريبة الأطوار كتلك! خاصة بعد ما رآه منها.

ما كل هذه الحماقات التي هبطت عليه فجأة؟!!ما كانت المرأة ولا غيرها لتخاطر من أجل إنقاذ أناس لاتعرفهم!!

إذا تفحصت الواقع ستجد أن الشهامة أصبحت نادرة جداً كالغراب الأعصم.....إذاً فكان لابد وأن يعلم أن وراء الأكمة ما وراءها.

تذكر حينما هرولا مقتافين آثار قطرات الدماء، التي تناثرت على الأرض راسمة خطوطاً معوجة، حتى وصلا إلى شجرة قد ألقي بجوارها جثتان أفرغتا من الدماء تماماً، شاحبتان يحتضنان بعضهما، كأن كلاً منهما يحتمي بالآخر، نظر إلى الجسد الذي سقط على الأرض عند قدميه، كان هذا رد فعل طبيعي من أم تشاهد جثث بناتها، كانت العواصف تضرب برأسه، هل سلم لها ابنتيه؟!!!

إذا كانت شيماء لا تزال على قيد الحياة، وقد سلمها بحمقه إلى مثواها الأخير، سلمها للقتل بكل وحشية، وكذلك فتاته المدللة، شمعة دربه ومهجة قلبه "نبيلة".

لقد حاولا حماية بعضهما، وقد كانت حمايتهما واجباً عليه، لقد تقاعس عن واجبه كأب، فعوقب بالحرمان منهما.

أحاط زوجته بذراعيه، وقد عزم على الانتقام من غريبة الأطوار الخائنة .

كانت تجلس بجوار شجرة ضخمة ذات جذع أسود، وفروع خاوية تتقاطر منها الدماء، شجرة فاحت منها رائحة الموت الكريه، لم يحتج الكثير من الوقت ليتعرف عليها، إنها تلك الشجرة الملعونة بالتأكيد، كانت تلك الخائنة تنظر إليها بخضوع أدهشه، ساد الصمت للحظات قليلة إلى أن قطعته بدعائها وشكواها لتلك الشجرة:أتعلمين ما فعلوا بي عندما أردت أن أمنعهم من سقياك بدماء غير بشرية؟!!

صمتت لبرهة وكأنها تنتظر ردها، ثم أردفت:ولكن لا بأس فقد عاقبتهم على خيانتهم، لا يضرني أنني أجبرت على الخضوع لإرادتهم لسنوات طويلة، ذقت فيها ألوان العذاب، ولكن كل هذا

يهون وقد أصبحت معك الآن.

أعرف أن الرجل وزوجته لايزالان على قيد الحياة، ولكني سأتركهما مكافأة لهما على قتل الخائنين.....وأظن أن دماء الفتاتين تكفي!

أمسكت بجرة فسكبت منها الدماء على جذعها، عز في نفسه أن يرى دماء أولاده تسقي شجرة وحشية ملعونة، أليس من المهانة أن تتساوى الدماء بالماء! لم يشعر بنفسه إلا وهو ينهال عليها ضرباً بعصا غليظة، حتى تناثرت دماؤها السوداء على تلك الشجرة وهو يهتف بغضب: إذاً دعيني أستهين بدمائك، وأسقي بها الشجرة كما استهنت بدماء بناتي .

كيف لم يلاحظ ذلك التشابه القوي بينها وبين هؤلاء المسن والعجوز، تلك العيون الزرقاء والتجاعيد التي تكسو وجوههم والغموض الذي يحيط بهم!

* * *

دلف إلى شقته وكأنه يسمع كل قطعة أثاث بها وكل ركن يسأله عنهم، ألقى بجسده المنهك على أقرب كرسي، بينما دلفت هي إلى غرفة نومها محتضنة صغيرها.

دفن رأسه بين كفيه، وأجهش بالبكاء، بكى كما لم يبكِ من قبل، لم تجف دموعه لحظة واحدة حتى صباح اليوم التالي كشتاء لم يتوقف عن المطر، تذكر أن هناك ما يخشى من فقدانه، فقام بتثاقل وبؤس لم ينجح في إخفائه، وجدها هي وصغيرها في ثبات عميق كالموتى، حاول إيقاظها دون أن يزعج عمراً فأخذ يهمس في أذنها باسمها، ويداعب خصلات شعرها، ويهز يدها بخفة، ما لبثت أن تحولت إلى عنف عندما رآها لا تستجيب له، هب مفزوعاً إلى هاتفه، فاتصل بصديقه الدكتور عماد الذي يعمل بإحدى المستشفيات الخاصة، فأرسل إليه سيارة الإسعاف لتنقلها على عجل إلى المشفى.

* * *

مسح الدموع التي فرت من عينيه خلسة، وأردف بصوت متحشرج، كاحتضار الموتى:منذ ذلك الحين وأنا أعرضها على أمهر الأطباء، ولكن بلا جدوى فهي لم تفق بعد.

حول نظره إلى الدكتور جمال، وظل ينظر إليه متفرساً، ينتظر أن يرى علامات عدم التصديق على صفحة وجهه، بل خطر بباله أنه سيتهمه بالجنون، ولكن ذلك الثبات العميق في نظراته يشي بأن في داخله شيئاً، لا يريد الإفصاح عنه، فجاء هدوؤه ضرباً لكل توقعاته في بحر عميق.

لاحت ابتسامة ساخرة على جانب شفتيه، وساد الصمت بينهما لوقت طويل، إلا من صوت احتكاك عجلات القطار بالقضبان، إلى أن توقف في نهاية المحطة، فنهض من مكانه بخطوات كان حريصاً على أن تبدو رشيقة، وتجسد اللامبالاة بحرفية عالية، في رسالة غير مباشرة للدكتور جمال، بأن رأيه لم يكن محل اهتمامه، إنما أراد أن يخفف وطأة الحمل الثقيل عن عاتقه، وتلك النسمات التي تداعب وجهه البائس خير دليل على أنه حقق مراده.

يشعر أن الهواء يدخل رئتيه لأول مرة منذ زمن بعيد، ابتسم بمرارة ساخراً، فمن أين يأتيه الأمل بعدما أغلق الألم كل باب.

استقل سيارة الأجرة إلى منزله، جلس في المقعد الخلفي هذه المرة، يشعر أنه بحاجة إلى الاختلاء بنفسه، لم يكن يريد أن ينتزعه أحد من ذلك الصفاء، وإن كان لحظياً، فقط يريد أن يتمتع بهذا الإحساس لبعض الوقت، ولا يهم إن كان سيجافيه بعد ذلك..

نظر إلى الجسد الذي استقر بجواره، رفع عينيه يتأمله، فاتسعت عيناه وفغر فاه من فرط دهشته.

*   *   *

أغلق باب الشقة خلفه، وألقى بمفاتيحه على الطاولة، أحاسيس كثيرة تتصارع بداخله، ولم يعد يدري ما يريد؟وماذا يجب أن يفعل؟ وبم يشعر؟ وأي الطرق يسلك؟

عليه أن يحدد مساره من جديد، يشعر أن بداخله طاقة كبيرة فما لقيه منذ قليل جعله يعيد حساباته من جديد.

دلف بخطوات بطيئة إلى غرفة نبيلة وشيماء، يتفقد بعينيه فضاء الغرفة، يبحث عن ضحكاتهم ومشاكساتهم، عن براءتهم وفتات ذكرياتهم التي تتناثر في كل أركان الغرفة.

تعلقت عيناه بصورة على الحائط الوردي، آهٍ فكم كانت نبيلة تعشق هذا اللون، كان يجلس في الصورة القرفصاء، وقد تعلقت نبيلة وشيماء بعنقه، وعلى شفتيهما ضحكة ملائكية، تجمعت العبرات في مقلتيه قبل أن تنهمر كالسيل على وجنتيه، أمسك بلعبة شيماء التي كانت تحبها كثيراً، حتى إنها كانت تضعها بجوارها في سريرها، ومازالت اللعبة واجمة في مكانها تنتظر دخول رفيقتها!! تذكر عندما أخذت تلح عليه أن تأخذها معها، لكنه رفض وقال أنهم لن يمكثوا طويلاً، وها هي اللعبة شاحبة قد غطتها الأتربة الكثيرة، كانت رؤيته مشوشة من أثر الدموع، ولكن قلبه يرى بوضوح صورتها وهي تحتضن تلك اللعبة، وابتسامتها البريئة تملأ الغرفة بهجة، وتأسر العقول، تختطفه من بؤسه إلى الصفاء السرمدي، من حزنه إلى السعادة الأبدية، من حياة بلا معنى إلى نعيم الحياة الذي لا يشوبه أي هم أو ضيق..

أسرع بوضع يده على أذنيه ليحجب صوت ضحكاتهم، الذي ظل يطارده إلى أن أسرع الخطا خارج الغرفة.... وجد نفسه على أعتاب غرفة عصام وعزة، كان مجرد النظر إلى باب الغرفة كرصاص يخترق عينيه، وضع يده على ذلك الجرح بالغ الأثر في قلبه، وهو منكس الرأس، منصرفاً إلى غرفته، والشوق يعصر قلبه.

دلف إلى الشرفة حاملاً معه أحزانه وآلامه، يعلم أنها محاولة بائسة للهروب، ولكنه دائماً ما يحاول، لعل الحظ يحالفه ذات مرة.

جلس وحده يتأمل ظلام الليل الدامس، ينظر إلى نجم وحيد في السماء، يشع ضوءاً خافتاً فهرب من نفسه إلى نفسه، وقف يتأمل ما حوله، تسبح عيناه في ذلك الفضاء الواسع، حتى وقعت على القمر الذي تبدى خلف الغيوم، مسكين ذلك القمر الذي حجبته الغيوم، تماماً كقلبه الذي حجبته الهموم، ولكن القمر لابد أن يكبر يوماً حتى يصير بدراً، فيملأ بنوره السماء، ولابد لقلبه أن يخرج من خلف سحابات الأحزان.

أمام عظمة الخالق التي تتجلى في خلقه، كل مشاكلك تبدو ظلالاً باهتة، وهنا أضاء سحر الكون قناديل الأمل بداخله، فنام وقد غشيته السكينة.

*   *   *

استيقظ على صوت رنين هاتفه، تململ في فراشه وهو يجيب المتصل:

نعم يا حسام...لا استيقظت الآن....سأكون عندك بعد ساعة....اطمئن، أنا بخير، فقط عدت متأخراً البارحة.... اتفقنا....مع السلامة.

قام من فراشه بتثاقل، مغمض العينين، ارتدى ملابسه سريعاً، لم يتدهور مظهره كثيراً، ولكن اللامبالاة تبدو واضحة في ثيابه المتكسرة.

بحث عن حسام كثيراً، فلم يجده في موقع الحفر كما اتفقوا، الجميع قالوا أنه غادر دون أن يخبر أحداً، ولا يخفى أن ذلك من عادة حسام، فهو محترف في المشاكسة، وإثارة الضجة! تأفف بضيق، وقد بدأ يساوره بعض الشك والقلق عندما أتاه ذلك الصوت الذي يستفز الجميع (الهاتف الذي طلبته مغلق أو غير متاح)...

غادر المكان هو الآخر بعدما اطمأن أن عملية الحفر تسير بشكل صحيح، وقد أناب عنه صديقه المهندس أشرف.

تمنى لو أن حسام قد عاد إلى مكتبه، وقد كان على حق....

. أنت هنا إذاً!!! لم لم تخبرني بأنك قد عدت إلى المكتب؟ فقد بحثت عنك كثيراً في الموقع، وهاتفك مغلق أيضاً!

لم يرفع حسام عينيه عن الأوراق التي كانت بيده، وقد بدت بالغة الأهمية.

.كان علي أن أعود إلى هنا، وأما هاتفي فقد نفذت بطاريته..

عقد حاجبيه باستنكار وهو يقول:وما الأمر العاجل الذي جعلك تترك الموقع بهذه الطريقة؟

أجابه وهوعلى حالته السابقة: لقد وصلت نتائج المعمل عن فحص عينات موقع كوم أمبو.......

.عظيم وما المشكلة إذاً؟

أخيراً رفع بصره عن الأوراق، ثم قام وتقدم بخطوات ثابتة نحوه، وقد تجلى الشك في كلامه:النتائج تشير إلى أن الموقع لا يحتوي على بترول، وبناء عليه جاءت أوامر الإدارة بإيقاف استعدادات الحفر....صمت لبرهة ثم أردف بثقة:

ولكني متأكد أن ذلك المكان فيه كمية لا بأس بها، ولست مقتنعاً بهذه النتائج، ألم تكن متفقاً معي وأشرف وعامر؟!

استدار وجلس خلف مكتبه، فقد كان يشاركه غرفة المكتب، عقد ذراعيه أمام صدره واسترخى على الكرسي:نعم ولكن ربما كنا مخطئين والـ......

قاطعه حسام بلهجة صارمة: بل ربما كان المعمل هو المخطئ.

صمت قليلاً محاولاً التفكير، ثم تمتم، وقبل أن ينطق سمعا صوت نقرات على الباب، ثم ظهر من خلفه الساعي، ومعه قهوة حسام المضبوطة، وضعها على مكتبه، ثم توجه بالحديث إلى

أحمد بلهجة مؤدبة، فقد كان معروفاً بحزمه، ولا يسمح لأحد أن يتجاوز حدوده معه، خاصة بعد الحادث الذي مر به، فزاده شدة وعصبية لدرجة مفرطة:

هل أجلب لحضرتك فنجان القهوة أم أنتظر حتى تأمر به لاحقاً؟

أومأ برأسه وأشار بيده أن أحضرها، فهم الرجل بالانصراف، فاستوقفه:انتظر قليلاً...

تسمر الرجل في مكانه، وقد ساوره بعض القلق والخوف.

أخرج محفظته ثم استخرج منها بعض النقود، ووضعها في راحة يد الساعي، وهو يطلب منه أن يجلب له علبة سجائر.

تنفس الرجل الصعداء، ثم فر من أمامه على عجل.....مازال ذهن حسام شارداً، والصمت هو سيد الموقف إلى أن قطعه أحمد قائلاً:

نتائج المعمل طبيعية وغير مثيرة للشك! أنت دائماً لا تنفك عن تمثيل دور المفتش كرومبو...

نظر حسام لصديقه الذي احتل مكتبه، يطالع الأوراق وقال بتحد واضح:الأمر هكذا إذن؟!

سأثبت لك أنني أعي ما أقوله جيداً، بل سأثبت لك أنني على حق.

صمت لبرهة ثم استطرد:سأرسل العينات إلى شخص محايد، أليس لديك رقم المهندس صابر الحسيني؟

فقط أعطني الرقم.......

مازال أحمد يطالع الأوراق، وهو مقتنع تماماً أن نتائج المعمل صحيحة، تنهد بقوة ثم قال:بطاقته في محفظتي، خذ الرقم منها.

كانت المحفظة لا تزال على مكتبه، فاستخرج حسام عدة بطاقات منها، وأمسك بإحداها، ثم قرأها بصوت مسموع:دكتور جمال الديب....من هذا؟

نظر إلى ذلك الجسد الذي استقر بجواره، رفع وجهه يتفحص معالمه، ثم اتسعت عيناه وفغر فاه من فرط دهشته!!!

ابتسم بوداعة وهو يقول: لا يمكنك الانصراف على عجل هكذا، هل نسيت اتفاقنا؟

أدار وجهه إلى الجهة الأخرى، وابتسم ابتسامة ساخرة: قلت لك أنك لن تصدقني؟وقد حدث......

_وما أدراك؟! فقط لم تعطني فرصة للكلام.

زوى أحمد ما بين حاجبيه، فعاجله الدكتور جمال مستكملاً بثبات واضح:نعم لم تعطني فرصة، فأنت تريد أن أسمعك وأستنتج وأحلل وأعالج، كل ذلك في بضع دقائق؟!

.وما الذي توصلت إليه إذاً بعد حكايتي؟

. الأمر ليس بتلك الصعوبة التي تتصورها..صمت لبرهة ثم أردف:ولكنه ليس سهلاً أيضاً! لذلك لابد أن ألتقي بك مجدداً......

أخرج قصاصة ورق من جيبه، وأعطاها له وهو يكرر:لا بد أن نلتقي في أسرع وقت...في انتظارك.

ناوله القصاصة في يده، ولم يمهله وقتاً للرد، فنزل من التاكسي مسرعاً.

.إلى أين ذهبت بعقلك؟

انتبه إلى حسام فقام متعجلاً، وانتشل محفظته من يده، وهو يسرع الخطا خارج المكتب، وسط اندهاش حسام الذي فشل في اللحاق به أو إيقافه....

*　　*　　*

استقل إحدى سيارات الأجرة، فلم يعد يمتلك واحدة، بل إنه كره القيادة من الأساس!

أخبر السائق بالعنوان، وقد شرد ذهنه من جديد، ليسبح في فضائه الخاص، في ذلك العالم المظلم البعيد، وسط تلك الضوضاء الصاخبة.

باهت هو كقصاصة ورقة صفراء أتلفها الزمان، وأكلتها الأرضه، محبوسةٍ في الأدراج... هش كغصن أرهقته الصحراء من حر شمسها الدائم، وحيد كحمامة تائهة تفصلها آلاف الأميال عن إلفها، أو كنجم في فضاء الكون اللامتناهي، تبدو النجوم من حوله قريبة للناظرين، إلا أن أقربها له يبعد ملايين السنين الضوئية.....

أفاق من شروده على صوت السائق يخبره بالوصول، فهز رأسه متفهماً، ثم ترجل من السيارة ببطء.

وقف أمام البناية المنشودة، وهو يتطلع إلى البطاقة، ليتأكد أنه قد أتى إلى العنوان

الصحيح... وأمام المصعد الكهربائي تردد بين العودة والصعود، حتى حسم أمره، فقال في نفسه:لن أخسر شيئاً، هي تجربة كغيرها من التجارب الطويلة، ولا ينبغي أن أعلق عليها أملاً كبيراً.

توقف المصعد عند الدور الثالث، وقف أمام العيادة يتطلع إلى ذلك الاسم:

الدكتور جمال الديب

استشاري الأمراض النفسية والعصبية

حدث نفسه بأنه لابد أن يطرق هذا الباب، الذي عزف له قلبه متأملاً أن يجد الحل هذه المرة.....عليه أن يبذل قصارى جُهده من أجل استعادتها، فهي شريكة حياته، ورفيقة دربه، وأم ابنه الذي تبقى له، ولا يستطيع أن يرعاه بمفرده.

كل عضو في الحشا يفيض حنيناً لها، وجيوش الشوق تغزو قلبه لتغرس ألغام الوفاء، التي لو انفجرت حبراً ما كفت لها الأوراق.

شحذ همته وأرغم نفسه على عدم العودة... لن يتراجع، وما كان ينبغي له التفكير في ذلك.!

وقعت عينه على شاب في الثلاثين من عمره، يجلس خلف مكتب أنيق يتفحص مجموعة من الأوراق، ويتناول قهوته بتلذذ...نطق بتلعثم:الدكتور جمال.... أأ.. أريد مقابلته...من فضلك.

عدل الشاب من وضع نظارته، وهو ينظر إلى ذلك الرجل طويل القامة، نحيف الجسد.. لا يختلف كثيراً عن أولئك الذين يعانون من الاضطرابات النفسية، لولا لمعة عينيه التي تدل على عقله وذكائه.....

سأله بثبات:هل لديك موعد سابق؟

أجابه أحمد بلسان متوتر: لقد اتفقنا على المقابلة، وإن لم نحدد موعداً لها، لكنه أصر على أن تكون في أسرع وقت... وعلى كل حال أنا لست هنا كمريض، ولكن كضيف....

لاحظ التردد يكسو قسمات الشاب، فأسرع بإخراج بطاقة التعريف الخاصة به، وأعطاها له قائلاً:أنا متأكد من أنه سيأذن لي في مقابلته، وإن لم يأذن سأنصرف بالطبع.

لاحت ابتسامة عذبة على وجه الشاب وقام برشاقة وهو يشير إليه بالجلوس:استرح قليلاً من فضلك...

لم يصدر منه أي ردة فعل، وهو يتابعه بعينيه إلى أن اختفى خلف أحد الأبواب، بل ظل واقفاً مكانه، وفكرة الفرار تتبلور في ذهنه من جديد، حتى هم بالانصراف!

.أستاذ أحمد...

توقف يستجمع شتات نفسه فابتلع ريقه بصعوبة، والتفت إلى الشاب بتوتر لم يستطع إخفاءه....

.لقد أخبرت الدكتور بوجودك، فطلب مني أن تنتظر في هذه الغرفة قليلاً، حتى يفرغ من

مكالمته...

أومأ برأسه موافقاً، وتوجه إلى الغرفة التي أشار إليها، غرفةٍ صغيرةٍ بعض الشيء، اصطدم بصره بحائط أحمر اللون، فاستثاره بشدة... حاول الهروب منه، فحول بصره إلى الجانب الآخر، فشعر براحة على الفور حين رأى الحائط الأزرق، شعر بأعصابه تسترخي قليلاً، الغرفة فيها أريكة واحدة، شد انتباهَه لوحةٌ معلقةٌ على الحائط الرمادي... وقف أمام اللوحة يتأملها، لم تكن سوى بعض الألوان المتداخلة!

.لابد وأنها قد أعجبتك!

ارتبك قليلاً، لكنه سرعان ما استعاد هدوءه المزيف، فالتوتر بداخله كأرجوحة لا تتوقف عن الاهتزاز.

. كلا بل إنني لم أفهمها على الإطلاق، لست أدري لماذا يدفع الناس أموالهم في مثل هذه الأشياء التافهة؟!!!

ربما تكون لوحتك باهظة الثمن، ولكني أتعجب كثيراً ممن يرسم مثل هذه اللوحات الغريبة، وتدعون أنه فنان!!!

فما علاقة الفن بهذه الغرائب؟!

. أوافقك تماماً...ولكن مع اختلاف بسيط....أظن أن أمراً ما يخفى عليك وعلى كثير من الناس.

نظر إليه بتعجب شديد وقال:

.أتريد أن تقنعني أنك لست مقتنعاً مثلي؟!...فلماذا تعرضها على الحائط إذا؟! ها

.حسناً لقد وقفت على نقطة في غاية الأهمية، لماذا أقتنيها وأعرضها؟

.صمت طويلاً، وعيناه لا تفارقان اللوحة، بينما تعلقت عينا أحمد به، ينتظر منه أن يكمل كلامه، إلى أن تحدث أخيراً:إنها إحدى الأدوية التي أستخدمها في علاج مرضى الاضطراب النفسي.....

ضاقت عينا أحمد بعدم فهم، فأردف د. جمال قائلاً وقد سره اهتمامه:

إنه العلاج بالألوان!.....لم يشأ أن يتركه يتخبط في أفكاره كثيراً، فأسرع موضحاً:علماء النفس يرون أن هناك تأثيراً واضحاً للألوان على النفس البشرية وعلاج المريض...

انظر معي إلى ذلك اللون الأزرق، فهو اللون العالمي المفضل بين الألوان، فهو يبعث الهدوء في النفس ويساعد العقل على التركيز.

وذلك اللون الأبيض، فهو رمز الطهارة والنقاء، ويعطي العقل فرصة للإدراك المتزايد..

بعكس اللون الأسود غير الموجود في هذه اللوحة، فهو يبتلع الضوء، ويخلق الحواجز...

لاحظ الاستخفاف يحلق في عينيه، فأردف قائلاً في إصرار على إثبات كلامه:وذلك اللون النيلي يساعد على الاسترخاء، والتأمل العميق لتصل إلى أفضل الحلول حينما تحيط بك المشاكل.

اكتفى بقسمات وجهه التي تفضح اقتناعه الداخلي، وتبرز رفضه عناده، فهو لا يريد أن يستسلم لرأيه بهذه البساطة، فاحترم رغبته وكف عن الضغط عليه...

*   *   *

خرج وقد انتشى من عذوبة الأمل الذي تفجر ينبوعُه في قلبه، فشرب منه حتى ثمل.. أسعده كثيراً ذلك الحماس الذي كان يتحدث به الدكتور جمال، وهو يشرح (بروتوكول) العلاج، تهللت أساريره عندما تذكره وهو يتحدث بثقة عن أن محنة حسناء لن تدوم طويلاً.

ولكن سرعان ما تبددت تلك الفرحة، وهو يتذكر الجزء الأخير من كلامه:

لكن إذا أردت أن يكتمل الأمر، فلابد ألا نذكرها بسبب وفاة الأولاد...دعنا نختلق لها سبباً آخر......قاطعه بحسم وغضب جارف:

كيف لي أن أكذب عليها، وأوهمها بأنهم لايزالون على قيد الحياة؟!ذلك إن لم تكن هي نفسها متذكرة ما حدث معنا بالتفصيل.

. الأمر ليس كما فهمت على الإطلاق، ولكن في غالب ظني ستكون ذاكرتها مشوشة، ويسهل علينا إقناعها بما نريد......صمت لبرهة ثم استطرد: فقط سنغير الطريقة التي ماتوا بها إلى طريقة أقل بشاعة، فأنا لا أضمن لك تماسكها إن استعادت ذَاكرتها، ومر أمام عينيها ما حدث.

لا يعلم كيف وافق على ذلك؟! كيف وافق على خداعها؟!

ولكنه كأس أقل مرارة من كأس آخر، ولربما صفعة على الوجه أقل إيلاماً من طعنة في القلب.....سار في الطرقات بغير وجهة، في داخله مشاعر كثيرة مختلطة، حزن وفرح، يأس وأمل، عجز وإرادة!

اصطدمت قدماه بشيء ما، حول نظره للأسفل، والسباب يحتشد بحلقه!

تعجب من ذلك الرجل الهَرِم، الذي افترش الأرض ماداً رجليه، تفحص شعره الأشعث وثيابه البالية التي كُتب عليها:

"لا تباع ولا تشترى "!

تساءل هل أوشك أن يصبح هو مثله جليس الطرقات، فاقد الوعي، خاوي القلب؟!

للحظات تخيل نفسه مكانه، يداعب اللحظات الثقيلة غير مبالٍ بها، يحتضن الشوارع بدلاً من أن تحتضنه هي، لا يفرح بكلمة طيبة، ولا يغضب من لفظة جارحة، ليس هذا زهداً ولا ورعاً، فقط هو الهروب، أو ربما جنون مختار! ولعله كان الطريق الأوحد.

أشفق على نفسه من التشبيه، هل أتى إلى هذه الحياة كي يصبح دمية رخيصة بلا رأي أو قرار؟!

أخذ يهز رأسه كأنه يطرد عنها تلك الأفكار السوداء، لا..لا يمكنه أن يصبح ريشة في مهب الريح تقلبها ظهراً لبطن، لا تعرف متى وأين تستقر!!.

قطعاً لم يُخلق عبثاً، بل خُلق ليغير ما لا يعجبه من حوله، ليمسك بقلم آدميته، ويسطر

حروف قصته دون إملاء من أحد، لا لتُغيره الظروف، وتجعله هو والجماد سواء.

لن يسمح لغير إرادة الله أن تتحكم فيه، ولن يدع الأمور تخرج من بين قبضة يده مرة أخرى.

* * *

جلس في أحد المقاهي بعدما أرهقه السير وأعياه التفكير، ارتشف قهوته في شرود وتركها تُسقط الماضي من أحداق الزمان، وتعزف لحن الطمأنينة في أُذُن المِحن.

* * *

قام من فراشه في همة ونشاط فارقاه منذ زمان بعيد، ارتدى ملابسه في عجالة وهو يسابق الوقت، كان عليه أن يصل إلى حسناء مبكراً، فقد وعد الدكتور جمال أن يلتقيا هناك في العاشرة صباحاً، وهي الآن العاشرة والنصف.

دلف إلى المستشفى مسرعاً، وقف أمام غرفتها يمشط الممر بعينيه...

.أستاذ أحمد......

التفت إلى ذلك الصوت الأنثوي باهتمام، مرتبك هو كطالب ينتظر ظهور نتيجته، ينتظر من أي أحد أن يُسمعه عبارات تقع موقع الرضا في نفسه، وبرداً وسلاماً على قلبه الحائر.

.الدكتور نبيل ينتظرك في مكتبه.

ابتسم بخفوت وهو يرى الدهشة تعلو قسمات وجهها، هَم أن يسألها إن كان ثمة شخص آخر معه، ولكنها عادت مسرعة إلى حيث أتت فقطعت أوصال أمله.

تأفف بضيق وذهب إلى مكتب الدكتور نبيل والغيظ يملؤه....تهللت أساريره لرؤية الشخص الجالس على مكتب الدكتور نبيل، لا يصدق أنه قد صدق في وعده له، وأتى بالفعل، يرى أن مصداقية الخطوة الأولى علامة خير فيما هو آت......

.آسف جداً على التأخير......

.لا بأس، فقد انتهزت الفرصة واطلعت على التقارير وملف المتابعة الخاص بزوجتك....

فضحته نظرة الترجي، وهو يهز رأسه كي يكمل.......

.في الحقيقة كنت أظن أن الأمر يشوبه بعض الصعوبات التي ستعوق سيرنا، ولكن...صمت للحظات لم يسمع فيها سوى صوت نبضات قلب أحمد المضطربة، إلى أن تابع ببشاشة: ولكن اتضح لي أن الأمرأسهل من ذلك بكثير.

ضاقت عيناه بعدم فهم فاستطرد قائلاً: كنت أظن في البداية أننا بحاجة كبيرة إلى تدخل طبي بالدرجة الأولى، ولا أخفي عليك أنني كنت أتعجب من عزوف زملائي عن استخدام العقاقير اللازمة مع زوجتك، فالعامان والنصف مدة هائلة لاستجابتها للدواء، ولكن سرعان مازال عجبي بعدما فرغت من قراءة التقارير.

أمسك ملف التقارير، وعاد ليقلب فيه مرة أخرى، وخيم الصمت على الحجرة.

ما باله سكت في وقت الكلام!ألا يدري ما يفعله صمته في ذلك القلب الحائر المسكين.

.الأمر يحتاج إلى شيء تحيا زوجتك من أجله، دعني أشرح لك:

عندما فقدت أولادها فقدت معهم ما كانت تحيا لأجله في هذه الحياة، ومن حسن حظنا أنها أضعف من أن تقدم على الانتحار...أنا أؤكد لك أنها تسمعنا وتشعر بنا، هي ليست منفصلة عن العالم كما تظن، لقد ساعدها عقلها الباطن على الانفصال عن ذلك العالم، لكن سلطانه عليها ضعيف، وعلينا أن نضع أمامها شيئاً ما يحثها على العودة إلى الحياة من جديد، شيئاً يلون حياتها، ويعيد إليها رونقها المبهر.

حل الصمت ضيفاً ثقيلاً بينهما لدقائق، شرد فيها عقله بعيداً... يسبح في أفق مجهول، يبحث عن شيء يساعده في الحفاظ على إبقاء شعلة الأمل بداخله مشتعلة...طرد الدكتور جمال ذلك الضيف بقوله: لقد فكرت كثيراً ولم أرَ أحداً يمكنه مساعدتنا سوى (عمرو).

نظر إليه بذهول مستفهماً: من عمرو؟

أسرع باستكمال كلامه عندما لاحظ عدم الفهم الذي نطقت به قسمات أحمد، وهو يسير بخطوات بطيئة حتى استقر خلفه مباشرة، وقال: عمرو ابنك، فقد كان أولادك السبب في اختيارها للعزلة، ولابد أن يكون من بقي منهم السبب في إعادتها للحياة مرة أخرى، أعني على طريقة " وداوني بالتي كانت هي الداء ".

ولابد أن تلقى زوجتك منك دعماً أيضاً.......

كان متعطشاً إلى حياة نابضة، إلى استعادة روحه وكيانه، لقد بلغ حد الاختناق من حياته الميتة! وسئم من أن يُحسب في كشوف الأحياء وهو شبيه بالأموات.

عليه أن يسير في طريق الحياة بخطوات متأنية واثقة، كي يصل بلا استجداء عطف أو معونة أحدٍ، والله وحده يفتح له أبواباً كثيرة، ولابد أنه سيستعيد راحته من جديد.

وحتى ذلك الحين فعليه أن يكون كشعاع شمس هارب من مآتم الغروب، متسلل بين ثنايا السحب، كي يبدد ظلمة الماضي، وينشر الدفء في حنايا الروح.

* * *

عادت حسناء إلى منزلها منذ عشرة أيام، في صحبة زوجها أحمد وابنها عمرو، ورغم الثقة التي تغزو قلب أحمد تجاه الدكتور جمال، إلا أنه في ريب من قراره الأخير بمنع العقاقير المهدئة عنها، فهو يخشى من تدهور حالتها، وقد صرح بمخاوفه تلك للدكتور جمال، لكنه ما لبث أن بث روح الطمأنينة في نفسه، حينما أخبره بأن تلك العقاقير المهدئة تزيد من إصرار عقلها الباطن على قرارها بالانفصال عن الحياة.

فَتح باب الغرفة ببطء، وهو يدخل بحذر شديد مخافة أن يُوقظ عمراً.. وقف يتأمله وهو

مستلق بجوارها على الفراش ويده تعانقها.

. ألم تشعري أنك بحاجة إلى معانقته؟!

ها هو صغيرك بجوارك، وهو في أمس الحاجة إليك، قد تَعرف قلبه عليكِ رغم بعده الطويل عنك....لست معتاداً منك على هذه القسوة، كيف تستطيعين أن تمنعي نفسَكِ عن معانقته وضمه إلى صدرك الحاني؟!!!

خرج صوته متحشرجاً، وقد تجمعت العبرات في مقلتيه، فحبسها رافضاً ضعفه هذه المرة، دق جرس الباب فانتزعه من أفكاره، فاتجه إليه مسرعاً خشية أن يستيقظ عمرو وهو لا يحسن إرضاءه!

. أهلاً بك يا دكتور، تفضل.....

. أرجو أن أكون قد أتيت في موعدي.....

. على الرحب والسعة في أي وقت، فأنا لا أبرح المنزل قط...تعلم أنه لا يمكنني أن أتركهما بمفردهما...تفضل في هذا المقعد.

غاب قليلاً ثم عاد إليه حاملاً فنجان القهوة، فابتسم الدكتور جمال بامتنان كبير:

. لا تعلم كم كنت أحتاج إلى احتساء القهوة، فأنا منزعج كثيراً لأنني لم أستطع أن أحصل على قهوتي اليوم، وذلك على غير عادتي، كما أن قهوتك حسنة المذاق.

ابتسم أحمد لمداعبته فهو يعلم جيداً أنه لا يحسن إعدادها.....

جلس على الكرسي المقابل له بعقل شارد، لاحظ الحزن الذي يرفرف في عينيه الذابلتين، يلاحقه اليأس وذلك ما كان يخشاه، فحاول أن يصرف عقله عن التفكير قليلاً:

. كيف حال حسناء اليوم؟

ومع أنه قد أعد نفسه لهذا الموقف، إلا أنه لم يستطع إخفاء تلك الشفقة التي تحضرت من كلامه، لكنها كانت كحطب أُلقي في قلب أحمد البائس.

عاد إلى واقعه من جديد وتحدث بخفوت:

لا جديد تحت الشمس!هي على حالتها الأولى، وقد منعت عنها المهدئات كما نصحتني.

. ألم تصدر منها أي حركة جديدة؟

. لا..لا شيء على الإطلاق.........

. وعمرو؟

. يظل بجوارها معظم الوقت، ولكنها بالطبع لا تشعر به.

. ومن قال لك ذلك؟!

هي تشعر به وتعرفه جيداً، لكنها فقط تحتاج إلى بعض الوقت كي تقتنع بأنه وحده دون إخوته، لكنه قادر على تسطير قصة حياتها من جديد، وبعث نقطة انطلاق بداخلها.

. أتمنى ذلك.

. حسناً، والآن دعني أراها.

. بالطبع تفضل.

سار أمامه بخطوات متثاقلة، وقد حمي وطيس المعركة التي اشتعلت بداخله بين الأمل واليأس، لا يعرف من منهما سوف يرفع راية النصر!

سحب الدكتور جمال كرسياً، وجلس بجوارها بعد أن وضع يد عمرو . الذي غرق في سبات عميق . حول عنقها... حدثها بصوت مسموع، وهو يراقب جفونها:

أتعلمين أن صغيرك النائم بجوارك الآن قد تأذى كثيراً في بعده عنك؟

أتعلمين أنك وحدك قادرة على رسم مستقبل مشرق له؟

صمت قليلاً ثم استطرد:أريد أن أخبرك بسر يطعن بخنجره في صدري، فهلا أصغيت إلي؟

حسناً سأخبرك إذاً!

سأخبرك أنني كلما نظرت إلى عمرو تخيلته شاباً يافعاً يصرخ في وجهك:لماذا أتيتِ بي إلي هذه الحياة المرة!ثم تخليتِ عني وأنا في أمس الحاجة إليكِ؟

صدقيني كأني أرى دموعك حينها بحراً لا يجف.

نهض من مكانه ورمق أحمد . وكان على مقربة منه . بنظرة ذات معنى لم يفهمه...ثم نظر إليها مرة أخرى فقال:

. أريد أن أخبرك بشيء آخر... إن كنتِ تريدين أن تجعليه يتيماً بائساً وحيداً فاستمري في عزلتك، فإن يُتمه أفضلُ بكثير من أن يكون ابناً لأم ضعيفة هشة، تريد أن تتركه ضحية لعجلة الحياة، تعبر على جسده العاري بتروسها ذهاباً وإياباً...

ألقى بذخيرته وانسحب من الغرفة مسرعاً، نعم لقد رأى نظرات العتاب في عين أحمد... يعلم جيداً أن كلماته قاسية إلى درجة كبيرة جداً.

وقف في الردهة وهو يعلم أنه يتبعه.......

. ألا ترى أنك قد بالغت في انتهارها كثيراً؟!

. لا، بل أرى أنك لازلت غير مقتنع بأنها تشعر بنا وتسمعنا جيداً.

. الأمر ليس كذلك، إنما أشـ.....

قطعت كلامه ضحكةٌ طفولية عالية، نظرا لبعضهما باندهاش وحيرة ثم انطلقا مسرعين نحو الغرفة.

*   *   *

حين نفرح يفرح الكون من حولنا، وتصبح خطواتنا كقفزات طفل يلعب بين حفرات المطر، وكأننا لم نبكِ يوماً ولم نغرق في بحور أحزاننا، نبتسم لغرباء الطرقات، وننتشي من مداعبة النسمات، وكأن للهواء نكهة قهوة الصباح الرائعة، كل ذلك لأننا نفرح بصدق، نفرح من داخل أعماق قلوبنا.

جلس في الشرفة يرتشف قهوته التي اشتاق إليها كثيراً، مذاقها مختلف تماماً عن تلك التي يصنعها بيده..ابتسم بمرح وهو يستمع لضحكة ابنه تطرب أذنيه، وتثلج صدره، وإلى جواره حسناء تداعبه بكل حب وحنان، وقد انعكس جمالها في مرآة السماء الصافية، فابتسمت متباهية في دلال، والخيلاء شيمتها.

لا يصدق حتى الآن أنها معه تحيا بين يديه من جديد، نعم ينقصهما الكثير، ولكنه يثق بأن عودتها ستُذهب حزن قلبه، وتزيل الشوك من طريقه، مر خمسة عشر يوماً منذ أن استعادت وعيها... في كل يوم يراها تجاهد نفسها كي تعوضهم مرارة الحرمان... يسمع بكاءها في الليل، ويستيقظ على ابتسامة عذبة منها في الصباح...يكفيه أنها بجواره، فلقد ظن أن أوتار قيثارة قلبه قد تقطعت، ولم تعد صالحة للعزف، ولكن ها هي تصل أوتار قلبه من جديد وتطربه بصوتها الغُنْجي.

لم يغفل لحظة عن شكر المولى عز وجل على عودتها إليه، ولكن يبقى هناك شخص يستحق الشكر على مجهوده الفائق، وقد تأخر عن شكره كثيراً.

* * *

.من فضلك أخبر الدكتور جمال أنني أود مقابلته...

لم تكن هناك علاقة قوية بينه وبين الشاب الذي يعمل في عيادة الدكتور جمال، إلا أن صورة أحمد قد انطبعت في ذهنه منذ أن رآه في المرة الأولى، وعرف بعدها أنه يأتي لاستشارة الدكتور جمال في أمر يخص غيره بحكم صداقة نشأت بينهما، لذلك لم يكن يستغرب عندما يطلب المقابلة دون موعد مسبق كما يفعل باقي المرضى، كما أن لديه تعليمات صريحة بأن يأذن له في أي وقت يحضر فيه إلى العيادة.

.انتظر قليلاً من فضلك، سأخبره بوجودك حالاً.

ابتسم بوداعة، بعدما ظن أن الابتسامة لن تجد يوماً طريقاً إلى شفتيه.

انتبه إليه وهو يعود بوجهه البشوش:

.الدكتور سيقابلك بعد انتهاء الكشف الحالي، يمكنك أن تستريح في هذه الغرفة.

قام بنشاط متوجها نحو الغرفة، وقد رأى أنها مكان جيد للانتظار، فقد كان يكره أن يجلس

مع أحد دون حديث بينهما فكانت الخلوة بنفسه هي الأقرب إلى قلبه.

الغرفة على حالها السابق، ابتسم عندما رأى تلك اللوحة مختلطة الألوان، وتذكر كيف شرح له الدكتور جمال معاني الألوان وتأثيرها على النفس.

أخذه ذلك الموقف إلى ما بعده، عندما أخبره الدكتور جمال أنهم مضطرون إلى تزييف الحقيقة في عين حسناء، وكيف أنه عارض قراره بصرامة، ثم ما لبث أن اتخذ هو القرار نفسه فيما بعد!

*　　*　　*

ألقى بذخيرته وانسحب من الغرفة مسرعاً، نعم لقد رأى نظرات العتاب في أعين أحمد وكان يعلم جيداً أن كلماته قاسية إلى درجة كبيرة جداً.

وقف في الردهة وهو يعلم أنه يتبعه.......

.ألا ترى أنك قد بالغت في انتهارها كثيراً؟!

.لا، بل أرى أنك لازلت غير مقتنع بأنها تشعر بنا وتسمعنا جيداً.

.الأمر ليس كذلك إنما أشـ........

قطع كلامه ضحكة طفولية عالية، فنظرا لبعضهما باندهاش، ثم انطلقا مسرعين نحو الغرفة..

وقف على أعتابها بعين دامعة، فنظرت إليه كأنها تناجيه بدموعها المنهمرة، وقد ضمت صغيرها إلى صدرها، تداعبه بأناملها الرقيقة، وتحدثه في صمت بلغة الحنان... كانت توزع نظراتها العاشقة بينهما، فسرى الدفء في الغرفة الباردة.

تصلب أحمد في مكانه غارقاً في دموع الفرح... يتمنى أن تتحدث لتخرج غصة نمت من مرارة الماضي الأليم.

كان الدكتور جمال قد تقدم نحوها بابتسامة مرحة، وزهو الانتصار يعلو قسمات وجهه.

. أهلا بكِ في عالمنا من جديد! أنا صاحب الصوت الذي هتف في أذنيك منذ قليل.. طبيبك الخاص... الدكتور جمال الديب.

ابتسمت بخفوت، ولازالت عيونها معلقة بأحمد...اقترب منها، وقد توقف الوقت، وتعطلت عقارب الساعة، كأنه يحلق في فضاء بعيد.

تحركت شفتاه فاستوقفته بإشارة من كفها:

.لقد اشتقت إليك كثيراً، وأرجو أن تسامحني فقد كان خطئي كبيراً.

ضاقت عيناه، بعدم فهم وزوى ما بين حاجبيه، فأردفت:

كنت أشعر بعدم الراحة في ذلك المنزل، وقد تملكني الخوف حتى تخيلت أن خطراً وشيكاً

سينقض علينا، ولكنني لم أكن أعلم أنني أسوقهم إلى ذلك الخطر بيدي! مازلت أتذكر عندما صرخت بوجهك أنه لابد لنا من مغادرة ذلك المنزل المخيف على الفور، بعد أن قضينا فيه ساعتين فقط!

كنت أشعر بأن جدرانه تضيق علينا، كأنه قبر ضمنا!

كنت أشعر كأن ناراً اشتعلت من تحتنا لتُنضج جلودنا!

كنت أرى أن حياتنا على وشك أن تتفلت من أيدينا، وكأن الهلاك حاصرنا في كل خطوة لنا في داخله.

أعلم أنك نزلت عند رغبتي، وليتك ما فعلت!

ليتك تركتني ليلتها أهذي...مسحت دموعها، ثم استطردت:

عدنا إلى السيارة، ومكثنا فيها قليلاً، وقد غط الأولاد في نوم عميق، ومع أننا ابتعدنا عن ذلك المنزل، إلا أن العواصف لم تهدأ بداخلي، بل داهمتني كثير من الأفكار السيئة، والهواجس المرعبة..

فجأة...وفجأة سمعنا صوت سيارة تطلق أبواقها عالية، حتى ظننت أنها كقطار لا يتوقف، تملكني الذعر، وأخذت أصيح بك وأنا أرى سيارة ضخمة قادمة نحونا من الخلف، وقد فقد سائقها السيطرة عليها.

ثم... ثم انتهى كل شيء.

أجهشت بالبكاء، ثم أردفت:لم أشعر بنفسي إلا على فراش في المستشفى، وأنت تجلس بجواري تحتضن عمراً فقط، والدم يغطي ثوبك.

عرفت أنني فقدت فلذات كبدي، ولم أجد وسيله لعقابي إلا بحرمان نفسي منك ومن عمرو، فأنا لا أستحق أن أكون زوجتك وأم أولادك...بعدها كنت أراك في أحلامي كثيراً، تجلس بجواري، وأنت تبكي تارة وتصرخ بي تارة أخرى...

لن أسامح نفسي أبداً، لا أعرف كم من الوقت مضى! ولكني عندما رأيت عمراً، أدركت أنه قد فاتني الكثير، وينبغي علي أن أعوضكما عما مضى.

كادت عيناه أن تترك محجريهما من فرط دهشته، كان لديه الكثير ليقوله لكنه امتنع بإشارة من أعين الدكتور جمال.

* * *

دلف إلى غرفة العيادة مبتسماً، فبادله أحمد نفس الابتسامة، جلسا على الأريكة الوثيرة..

_لا أدري كيف أوفي حقك، فأنا مدين لك بالكثير.

.لا، لست مدين لي بشيء فأنا لم أقم إلا بواجبي.

ساد الصمت بينهما للحظات، إلى أن قطعه الدكتور جمال قائلاً بشك: ماذا بك؟ أرجو أن تكون الأمور على ما يرام.

.في الحقيقة هناك شيء يحيرني ويُقِض مَضجعي......

.مممم

.يشغلني كثيراً ذلك الكلام الذي رددته حسناء بعدما فتحت عينيها!

.ألم أقل لك إنها في الغالب لن تتذكر الأحداث التي مرت بكما؟

.ولكن إلى هذه الدرجة؟!أتذكر أنني قرأت أن الذكريات المنسية والتي تكون في الغالب صادمة تبقى في اللاوعي الضبابي، ولا تتغير معالمها بمرور الوقت، كما أنها لا يؤثر فيها التنافس مع الذكريات الأخرى.

ابتسم الدكتور جمال، وكان قد أعد نفسه قديماً لهذا الموقف، بعد أن أخبره بقصته في القطار....

. هذه نظرية... لكن هناك نظرية أخرى، وأنا شخصياً أميل إليها... تتحدث عن أن الذكريات الزائفة ليست أمراً نادر الحدوث، وليس شرطاً أن تكون قد حدثت بالفعل، بل لعل الشخص قد حلم بها أو تخيلها ثم أثبتها في روايته.

.هل تريد أن تقول أن ذلك هو ما حدث معها؟

.لا، بل معك أنت!!

* * *

كعادتها شوارع المحروسة مزدحمة بالمارة.

سار أحمد ببطء بين الوجوه المزدحمة، وسنوات الألم تمر على خاطره، تتراقص صور من روايته أمام عينيه، وصورأخرى من رواية حسناء، ولا يثبت في النهاية شيء منهما في عقله، تماماً كالأشباح التي تلوح في الظلام وتختفي.

يشعر أن كل ما جرى معه لا يخصه، فكأن في داخله شخص آخر، وقد آن الأوان أن يغادره.

تصطدم أكتاف المارة بكتفه، فيلوحون له بأيديهم، فيلقاهم بوجه مندهش، وكأنه لم يخطئ في حقهم.

كانت الصدمة أكبر بكثير من كل توقعاته... يقف مذهولاً، وهو يتذكر تلك السطور التي قرأها، وتلك الصورة التي تتوسطها!

أيعقل أن يكون قد عذب نفسه كل هذه المدة بلا ذنب؟

هل رفع كأس المرارة إلى فمه وتجرعه بإرادته؟

وأين ذهبت ليالي السهاد الطويلة التي قضاها في حسرة وندم؟

وهل كان سيعاني في قيود الحقيقة بقدر معاناته في قيود الذكرى الوهمية؟

بل كيف ترك نفسه فريسةً لأنياب أفكاره الهدامة، وضحيةً لعقل ضعيف، يخشى المواجهة فاختبأ خلف ستار الأوهام؟!

لقد بالغ في تحمل المسؤولية، فرأى نفسه المُلام الوحيد عن كل صفعة على وجه أحبائه، ذلك لأن الرجل هو الدرع البشري الذي يحتمي البيت في عباءته.

بلغت الحيرة منه مبلغها، وهو لا يدري هل كان رحيماً بغيره أم ظالماً لنفسه!!!

أدرك أن ظلمه لنفسه لا يقل جرماً عن ظلمه للناس.

كان هو وزوجته كلاهما يَعُد نفسه مخطئاً آثما، أودى بحياة أبنائه إلى الهلاك؟!

* * *

نظر إلى ذلك الرجل العبقري الذي وضعه القدر في طريقه، ليعزف على أوتار قلبه ويروي ظمأه، كالمطر المنسكب على ذاكرته المتسخة.

نظر إليه في شك مما تراه عيناه، لكن نظرات الدكتور جمال الجادة كانت كصفعة أخرى تؤكد حقيقة ما يراه في تلك الصحيفة التي نشرت خبر الحادث.

التهم السطور بعينيه، وكاد أن يسمع نبضات قلم الصحفي وهو يصف الحادث البشع، الذي تعرضت له الأسرة بأكملها، فمات أولاده الأربعة وسائق الشاحنة، ونجا هو وزوجته وابنه عمرو.

أعياه ذلك السطر الأخير:" غفر الله للسائق الطائش، وربط الله على قلب الوالدين وألهمهما الصبر على فقد حبات قلوبهم".

وماذا بعد؟

لقد رحلوا بالفعل، تماماً ككل شيء في الدنيا سيرحل حينما يأتي وقت رحيله.

لم يعد بيده شيء ليفعله، فقد قضي الأمر، وعليه أن يطوي صفحة الأحزان، وأن يأذن للأفراح أن تدخل في حياته، ليكون شمساً في سماء كل من في حياته.

* * *

أحس بنسمات الهواء المنعشة تداعب شعره ووجنتيه، وتتبع بعينيه عصفوراً وقف فوق شجرة مزهرة، فغنى بألحان مطربة ملأت روحه سعادة غامرة.

تمت بحمدالله